الأب يواكيم مبارك

حول لبنان وفلسطين والحوار الإسلامي ـ المسيحي

مختارات

تقديم: د. جورج قرم
توما دياب



الفارابي

الأب يواكيم مبارك

حول لبنان وفلسطين
والحوار الإسلامي - المسيحي

مختارات

تقديم: د. جورج قرم
و
توماس وسلام دياب

ترجمة: د.سلام دياب

أستاذة اللسانيات العربية في جامعة باريس الثامنة

دار الفارابي

الكتاب: حول لبنان وفلسطين والحوار الإسلامي ـ المسيحي
المؤلف: الأب يواكيم مبارك
تقديم: د. جورج قرم/ توماس وسلام دياب
ترجمة: د. سلام دياب
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) – فاكس: 307775(01)
ص.ب: 11/3181 – الرمز البريدي: 2130 1107
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: آذار 2014
ISBN: 978-614-432-126-3

تمهيد

يسرني أن أضع بين يديْ القارئ العربي بعض الدراسات من بين العديد منها ومن الكتب القيِّمة للأب يواكيم مبارك (1924–1995)، وهو ذاك العلامة بكل معنى الكلمة الذي تجاهله وطنه رغم غنى التراث الفكري والثقافي والتاريخي الذي تركه لنا.

صحيح أنَّ عدداً كبيراً من أعماله الفكرية قد كُتِبَت باللغة الفرنسية نظراً لإقامته في فرنسا مدة طويلة ولحيازته على ثلاث شهادات دكتوراه من جامعة باريس، تدور حول تاريخ العلاقات المسيحية والإسلامية منذ نشوء الديانة الإسلامية.

وما يميِّز أعمال هذه الشخصية الفذة من الناحية الفكرية كما من الناحية الإنسانية، هو هذه النظرة الشاملة المنفتحة والثاقبة ذات الآفاق الحاضرة والمستقبلية البنّاءة والمتفائلة لتأمين الانسجام والمودة ليس بين أبناء لبنان فقط، بلْ أيضاً بين العرب أنفسهم.

إنَّ مقاربة يواكيم مبارك لتاريخ العلاقات المسيحية الإسلامية هي مقاربة موضوعية بشكل لافت وإنْ كان متجذِّراً في المسيحية ويؤمن بها

إيماناً ساطعاً مفتوحاً على أبناء الديانات الأخرى. وهو بحث باستمرار عن القواسم المشتركة، وليس عمّا يتناوله بشكل مكثف العديد من المفكرين والباحثين من الحواجز وشعور التعصّب والانعزال عن الآخر أو كرهه.

وقد اشتُهر الأب يواكيم مبارك في العالم الفرانكفوني بتعليمه الجامعي حول الديانة الإسلامية ومبادئها وعقيدتها، وذلك في كلٍّ من جامعتَيْ السوربون في باريس وجامعة لوفان الكاثوليكية في بلجيكا. وكذلك اشتُهر بمساعدته للطلاب اللبنانيين والعرب في باريس بالإشراف على أطروحات دكتوراه عديدة في مواضيع هامة لبنانية وعربية.

واللافت للنظر أنّه بقدر ما يفهم جذور العقيدة الإسلامية ويفسّرها، يدين الموقف السلبي للكنيسة الكاثوليكية على مر العصور تجاه النبي العربي، إنّما يبقى أشد كلامه وتنديده لما أصاب الديانة اليهودية من جرّاء نشأة الصهيونية السياسية وإنشاء كيان إسرائيل الغاصب، وكأنّ الديانة اليهودية اختُصِرَت في إبراز «صك ملكية عقارية في أراضي فلسطين» حسب تعبيره.

ومن هذا المنطلق، رأى الأب مبارك أنّه لا بدَّ من تكاتف اللبنانيين والفلسطينيين معاً لمجابهة الظاهرة الصهيونية الفتاكة. ذلك أنّ تأسيس الكيان الصهيوني يهدد الوجودَيْن الفلسطيني واللبناني

معاً. الوجود الفلسطيني لأنّ أطماع إسرائيل في الأرض المطهَّرة من سكانها الأصليين هي واضحة للعيان، لا لبس فيه، والوجود اللبناني لأنَّ التداخل بين الطوائف الدينية اللبنانية والعيش المشترك فيما بينها دون مشاكل تُذْكر على مر العصور قبل عهد الاستعمار الاوروبي، هو المثال المعاكس للكيان الصهيوني الإقصائي لغير اليهود.

وقد بذل الأب مبارك قصارى جهده خلال الحرب اللبنانية للتوسط والتوفيق بين الجبهة اللبنانية من جهة، والزعماء الفلسطينيين القاطنين في لبنان حينذاك وحلفائهم من التنظيمات اليسارية اللبنانية المتحالفة مع منظمة التحرير الفلسطينية في إطار الحركة الوطنية اللبنانية من جهة أخرى.

وقد ناضل الأب مبارك أيضاً فكرياً وعملياً لنهضة الكنائس الشرقية وعلى رأسها الكنيسة المارونية التي كان ينتمي إليها. وقد تجسَّد هذا النضال في دراسات تاريخية معمَّقة حيث يُظهر القواسم المشتركة بين الكنائس الشرقية بتراثها الإنطاكي، إذ لانَّ كل تلك الكنائس التي تأسَّست ظهرت أصلاً في مدينة إنطاكية، ولذلك يحمل معظم بطاركة الشرق العربي في لقبهم إشارة مباشرة إلى الجذور الإنطاكية.

وضمن إطار ولائه الكامل لكنيسة روما، فإنّه كان يحثها باستمرار على الانفتاح على سائر الكنائس الشرقية، كما وعلى المسلمين. وكان حريصاً على الحفاظ على التقاليد الشرقية الخاصة الإنطاكية الجذور،

أمام كنيسة روما. وقد كرَّس العقد الأخير من حياته إلى إقناع كلٍّ من كنيسة روما والبطريركية المارونية بضرورة انعقاد مجمع ماروني ينظر في كل القضايا والتحديات التي تواجهها الكنيسة المارونية في العصر الحديث، خصوصاً بعد أن انقضى قرنان ونصف منذ آخر مجمع للكنيسة المارونية الذي انعقد في اللويْزة عام 1736. وهو المجمع الذي دبَّ فيه الخلاف بين أنصار لتَيْنَة (latinisation) الكنيسة (أيْ جعل طقوس الكنيسة متشابهة تماماً مع طقوس الكنيسة الرومانية) و أنصار التمسك بالطقوس على الطريقة السريانية.

وقد كان الأب مبارك يتألَّم من تدهور أوضاع الكنيسة المارونية ومن فقدانها الدور المعنوي والأخلاقي والروحي الذي تميَّزت به في عصورها الذهبية، والتي كانت عنصراً من عناصر مجد تاريخ جبل لبنان. ولقد كان يصرّ على أن ينعقد مثل هذا المجمع لترتيب البيت قبل أن تبادر كنيسة روما إلى عقد سينودس للموارنة في روما. وقد تعب الأب مبارك وأنهك صحته عندما أتى إلى لبنان وعمل في البطريركية المارونية لتحضير هذا المجمع. وقد أصابته خيبة أمل كبيرة عندما تأخر انعقاد المجمع الماروني في لبنان لسبب إعطاء الأولوية إلى انعقاد سينودس ماروني في روما. فعاد حينئذٍ إلى فرنسا حيث توفي بعد سنين معدودة، ولم يشهد مداولات المجمع الماروني الذي انعقد في لبنان بين عاميْ 2003 و 2005 بعد انعقاد السينودس الماروني في روما عام 1997. وقد كان للأعمال التحضيرية لهذا المجمع التي قام بها الأب

مبارك أثر كبير على مداولات المجمع وبعض أوراقه.

إنَّ هذا الكتاب، كما ذكرت، لا يجمع إلا القليل من فكر الأب مبارك[1] لكيْ يتمكَّن القارئ اللبناني وكذلك العربي من بدء التعرّف على غنى فكره وأبحاثه ونظرته الممتلئة بالحب والتعاطف للشرق العربي وللعُرْبة[2] وللبنان وفلسطين والطموح في نهضة هذه المجتمعات التي لعبت دوراً هاماً في التاريخ الإنساني.

إنَّ الأب مبارك حقاً معلّم وموسوعي، إذ إنَّ جميع دراساته وأبحاثه تجمع بين علم اللاهوت وعلم التاريخ وعلم الاجتماع وعلم السياسة. لذلك فإنَّ هذا الفكر يصيب دائماً في وصفه الدقيق لحقيقة المشاكل التي تفجّر النزاعات الحديثة في الشرق الأوسط وتوظّف أديانه فيها، كما هو فكر تفكيكي لكل المواقف المتصلّبة والمتعصّبة والمنافية لمبادئ الأخلاق الوضعية وطوائفه ومذاهبه الدينية في آنٍ معاً.

إننا نأمل مستقبلاً أن تتمّ ترجمة المزيد من نصوص الأب مبارك

(1) لقد جمعْتُ أهم نصوص الأب مبارك ومقاطع وفيرة من كتبه في مؤلَّف بعنوان «يواكيم مبارك، شخصية استثنائية»
(*Youakim Moubarac, un homme d'exception. Textes choisis et présentés par Geogres* Corm, Librairie Orientale, 2004, 568 p.

(2) في قاموس الأب يواكيم مبارك يشير مفهوم «العربة» إلى المحتوى الثقافي والحضاري الغني للعروبة تاركاً هذا المفهوم الأخير للمدلول السياسي بينما هو ركّز في كل أعماله على أنَّ العربة هي الجامع المشترك بين كل الطوائف الدينية والعرقية للمشرق العربي.

وربما جمع النصوص المكتوبة أصلاً باللغة العربية.

ولا بدّ هنا من شكر السيدة سلام دياب، مديرة تعليم اللغة العربية في مدينة ليون التي تطوّعت في ترجمة النصوص التي اختيرَت في هذا الكتاب.

جورج قرم
2014/1/22

توطئة[1]

سرّ الاتحاد

منذ حوالي قرنين من الزمن، شاء الدهر أن تُملي الصبية الحلبية «هندية[2]» على الأب جرمانوس دياب نص «سر الاتحاد» بجسد السيد

---

(1) كتبتُ هذه التوطئة مع شقيقي الدكتور توماس دياب وكان من المفترض أن أترجم معه هذه المختارات، لكن الله توفاه قبل بدء الترجمة، فواصلت بمفردي هذا العمل الذي أهديه لروحه الطاهرة.

(2) اسمها الأصلي هو «آنّ»، لكن بسبب سُمرة بشرتها التي جعلتها تُشبه نساء الهند، أُطلق عليها اسم «هندية». نشأت هندية في كنف عائلة مارونية حلبية ميسورة الحال، وتأثرت منذ نعومة أظفارها بأمور الدين والروح. فأسرّت لوالدتها أن الله منحها هبة الصلة بالسيد المسيح الذي أمرها بالذهاب إلى جبل لبنان لتأسيس تجمع كنسي ودير. فتبعها في مسيرتها الروحانية الأب جرمانوس دياب الذي كان رئيس الدير في حلب ومعرِّفها وأمين سرها، فأملت على جرمانوس دياب نصًا (سرّ الاتحاد بالجسد المعذّب للسيد المسيح) ممّا كان يلهمها إياه السيد المسيح، كما كانت تقول، علمًا أنها كانت أميّة. عندما وصل خبر هندية إلى الفاتيكان عام 1752، أمرت بإجراء تحقيق ثم تبعه تحقيق آخر، فجاء القرار، كما هو متوقّع، بالحكم على هندية بقضاء ما تبقى من عمرها في العزلة والظلمة والحبس المفرد.

المسيح المعذّب. واليوم لمرة أخرى يختار الدهر أفرادًا آخرين من آل دياب لترجمة أعمال مختارة من كتاب ضخم لقداسة الأب يواكيم مبارك.

ولئن كان هذا الخيار شرفًا لا يعادله شرف، تبقى المهمة عسيرة جدًّا، إذ تصعب ترجمة كتاب كُرِّس للتعريف بأعمال رجل اشتهر بنبوغه الحاد وبفكر ثاقب أخّاذ وبسعة إحاطته في أغوار العلوم الدينية والفلسفية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية؛ فالرجل سلسلة فكرية أنتروبولجية ذات أبعاد متشعّبة.

رجل دين وراهب خالد طُبع في أعماقه ببرهان آلام السيد المسيح؛ يواكيم مبارك كان رجلاً مُشغفًا بالعدالة ومحبة الله وخليقته، فأبدى بعدًا إنسانيًّا شموليًّا يُعادي، دون هوادة، كل شكل من أشكال الظلم أيًّا كانت أسبابه ومصادره وأماكنه.

هكذا، أصبح خلاص الإنسان عقيدة متجذّرة في صلب إيمانه ومنطلقًا رئيساً لكل صنيع من صنائعه. لهذا كان الأب الجليل ، يواكيم مبارك، مؤمنًا بالدور الذي يمكن أن تتخذه الكنيسة في سبيل هذه العقيدة. كان يؤمن أن على الكنيسة أن تتجاوز خلافاتها العقائدية والرعوية لاستعادة وحدتها الأصلية. وفي السياق نفسه، كان يؤمن أن هذا الزخم الكنسي المسكوني لا يمكن له أن يتمّ من دون الرجوع إلى أصول الكنيسة الأولى، باتّباع طريق الزهد والنسك الذي تبعه سيدنا يسوع المسيح. كتب يقول إن مَن يحقق الوحدة بين البشر هم أولئك

الذين يجهدون في التقرب إلى الله والاتحاد به [...] إذ إنهم واحدٌ أمام الواحد الأحد وأمام الوجود الإفخارستي.

ففي رأيه، إن جوهر رسالة الكنيسة الإنطاكية هو في صلة الوصل بين الكنيسة اللاتينية (التي يرى أنها كنيسة الابن المُجسَّد، نظرًا إلى التزامه الأزلي تجاه مصير البشرية) والكنيسة البيزنطية (كنيسة الأب، نظرًا إلى جهدها الطقسي تجاه عالم الملكوت الآتي). فقال إن التاريخ فرض على الكنيسة الإنطاكية فريضة اليوم الآخر في سعيها النسكي وفريضة الدنيا في تخضُّعها.

هكذا تصبح الكنيسة الإنطاكية في رأيه كنيسة السريرة التي هي الروح القدس. وفي حضن هذه الكنيسة، تكون الكنيسة المارونية الشاهد على هذه الرسالة الإنطاكية تجاه الروح القدس. لذلك فإن الدور المسكوني للكنيسة الإنطاكية مُتوقِّف على استعداد الموارنة والأرثوذكس معًا للسير في طريق الاتحاد. ولذلك أيضًا على الكنيسة المارونية أن تستعيد هويتها الأولى التي فقدتها في المجلس اللبناني عام 1736 الذي أسفر عن انحلال الهوية واختزال التراث وفقدان الاستقلال الإداري.

كانت هذه المعركة ذات أهمية قصوى بالنسبة إليع، إذ تمثل نقطة الانطلاق ومنصة الوثب لتحرير لبنان ومن ثم تحرير الشرق العربي من نير العنف والبؤس والشقاء. فاللبننة جسّدت في الماضي طموحات المارونية، كما تُجسّد في الوقت الحاضر مصير المسيحية المقترن

بمصير الإسلام في محنة العالم العربي اليوم. لا بل إنه الشرط الذي لا مندوحة منه للخروج من الانغلاق العقائدي المعروف باسم « التراث اليهودي المسيحي»، والتوصل أخيرًا لأن «ننطلق من كلمة الله، من النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتياً إلى العالم، فيؤلف سيمفونية تُؤجج فيها الروحُ القدس إيقاع كل صوت بشري، وتُناغم صوت البشرية ابتهاجاً وغبطة».

تلك هي، وبطريقة مقتضبة جدًّا، أهم نقاط كتاب جورج قرم الذي كرّسه للأب والمرجع الجليل يواكيم مبارك. لكن نظرًا لتشعّب العمل وللسياق الجيوسياسي لهذه الفترة بما في ذلك من صراع داخل الدين الإسلامي، ارتأينا أن نترجم الفصول التي تبرز أساس فكر الراهب الجليل، أي روح الانفتاح والمصالحة والتسامح في إطار احترام حقوق الإنسان الأساسية.

توماس وسلام دياب

مقدمة

مساعٍ ثلاثة في الشرق العربي[1]

تنبيه تمهيدي في نقطتين[2]

1. لقد أدرجت تأملاتي النهائية في الاقتراحات التي أقدمها في ختام هذه الندوة، لذا أريد الإشارة إلى أن الاقتراحات والتأملات التي تكتسيها لا تُلزم غيري، وبالتالي فهي لا تتسم بأي طابع رسمي أو أكاديمي. وعلى منوال ما قُدّم خلال الأيام التي عقدت فيها هذه الندوة، فإنّ اقتراحاتي مفتوحة للنقاش الحر.

2. يرجى الانتباه إلى أن تأملاتي قد أُعدّت للمدى الطويل وإن كنت قد اقترحت بعضها للمدى القصير. يا أيها المسيحيون في الشرق، إن أغلبكم يشعر أن المنافذ قد سُدّت عليكم كي لا أقول إن الخناق قد

---

(1) هذا النص هو كلمة الأب يواكيم مبارك التي ألقاها في مؤتمر «مسيحيو العالم العربي وأصدقاؤهم» الذي انعقد في البيت الدولي للاستقبال في باريس (FIAP) في شهر أيلول/ سبتمبر من عام 1987.

(2) كل الحواشي السفلية هي من إضافات المترجمة.

ضاق. فيما يخصني، أنا لا أشاطركم هذا الشعور لأن رؤيتي للوضع تختلف عما يغذي لدى الكثير من المسيحيين من مشاعر خوفٍ وقلق. لكن رؤيتي هذه لا تمنعني من المؤازرة والتعاضد مع من يشعر من أبناء طائفتي بالقلق وغياب الطمأنينة، حتى وإن كان دافعه التصرف المتهور والمجرم لمسيحيين آخرين. لكن ما من حافز يسعفني ويقدم يد المساعدة لأبناء طائفتي سوى حافز المدى الطويل. لقد تطلب وضعنا دوماً أن نلوذ بالصبر وطول الأناة، لذا لن أقترح ما يخرجنا من طريقنا المضطرب التي أصبحت خبزنا المعتاد منذ عهد قديم. فما أصبو إليه، في إطار إخلاصي التام لأبناء طائفتي ولتاريخنا المجيد، هو أن أخفف مرارة دموعهم بمذاق عطر الجنة التي يهبها الرب لنا في لحظات جد نادرة عندما يقاسمنا، إلى جانب خبز آلامه، كأس آلام الرب ونشوتها.

بعد هذا التنبيه، سأكرس تفكيري واقتراحاتي لمواضيع ثلاثة بالإجابة على السؤال التالي: أيها المسيحيون في العالم العربي، بمَ يوحي لنا الوضع الحالي في الآلام التي تضنينا منذ فترة طويلة؟

أجيب بمساعٍ ثلاثة :

1. العودة إلى الكنيسة الإنطاكية.
2. إعادة بناء لبنان.
3. إحياء النهضة العربية.

1. العودة إلى الكنيسة الإنطاكية

ماذا تعني العودة إلى الكنيسة الإنطاكية؟

1.1 هي أولاً المطالبة ضمن الكنيسة العالمية برسالتنا كمسيحيين أرومة أقوام مختلفة تحررت من اليهودية وشريعتها. وهي أيضاً، في نطاق نبذ الختان وحرفية الكتاب المقدس، المطالبة بالمعنى الروحي لهذه الرسالة وبكلمة الحرية التي نفختها الروح القدس، من خلال يسوع المسيح، في كل شعب بلسانه الخاص به، وعبرت عنه حسب ثقافته الخاصة. مما يعني أن نجعل ما أسماه آباؤنا التنظيم الخاص بالأسرار المقدسة بديلاً عن اللاهوت المعروف باسم «تاريخ الخلاص» والمنغلق على «التقاليد اليهودية المسيحية» كضحية على سرير بروكست[1]. أي أن ننطلق من كلمة الله، من «النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتياً إلى العالم»[2]، والذي أمر الرُسل بعدم رصف الشعوب بجموعها على وتيرة شعب واحد، حتى وإن تحقق ذلك

---

(1) بروكست شخصية أسطورية من الأساطير الإغريقية، كان رجلاً عملاقاً وقاطع طريق. فإذا مر به أحد، أسره ووضعه على سرير ثابت القياسات ؛ فإن كان أطول بتر الأعضاء التي لا يسعها طول السرير، وإن كان أقصر شدها وجذبها لتوافق طول السرير، وإن كان بطول السرير تماماً أطلق سراحه ونجا من الموت. انظر : المنجد في اللغة والأعلام، 2000. مجازاً هو مثال يُضرب لمن يعتبر أن مقاييسه هي الأفضل والمرجع الذي يحتم إزالة المقاييس الأخرى إن لم تتكيف مع مبادئه وعقيدته.

(2) إنجيل يوحنا البشير، الإصحاح الأول، العدد الأول.

في نطاق إجماع عالمي، وإنما أن تؤلف سيمفونية تُؤجج فيها الروح القدس إيقاع كل صوت بشري وتُناغم صوت البشرية ابتهاجاً وغبطة.

1.2 إن العودة إلى الكنيسة الإنطاكية تتطلب استعادة وضعنا المشترك الذي شهدناه في الألفية الأولى حيث كنا نشكل في الصلاة كنيسة واحدة على الرغم من نزاعاتنا. بمعنى آخر أن نرفض، دون خشونة أو عنف لكن ببصيرة نافذة، الاحتلال الذي خضعنا له في الألفية الثانية من قبل كنائس الإمبراطوريات الكبرى إثر الحروب الصليبية البيزنطية ثم اللاتينية. لكن دون أن ننكر الصِلات الروحية التي أثرت فينا والتي يتوجب تفريقها عن ولاءات غير طبيعية، نُعلن عدم مشاركتنا في الصراعات القروسطية التي أثارت المسيحيين بعضهم ضد بعض لغاية الفترة المعاصرة. أي أن نناديَ بمسكونية إنطاكية ترفض أن تضلّ الطريق في متاهات الكنائس اللاتينية والبيزنطية والبروتستانتية، بل تقوم، انطلاقاً من وضعها المهين، لتتحدى بقوة كبريات المساومات الكنسية المسكونية عبر وحدة إنطاكية فعلية.

1.3 لكن هذا التحدي بوحدة إنطاكية فعلية لا يجد صدقيته إلا في العودة إلى رسالتنا الأولى القائمة على الانزواء النُسكي والطقسي من خلال حركة التخلي عن الذات التي نهجها يسوع المتألم. أو كما يقول البعض: في اصطفاف جماعي خلف قديس ناسك يُقتدى به، أو في الانضمام إلى جماعة مقوماتها الزهد والمقاومة والتأمل. وهذا هو

حقيقةً الأهم في عودتنا إلى الكنيسة الإنطاكية، أي على غرار الإحياء الذي حصل في الإسكندرية بين الأنبا شنودة ومتى المسكين[1]. وخير مثال يؤتى به للموارنة هو مثال القديس شربل والقديسة رفقا.

1.4 لكن التحدي الإنطاكي بوحدة فعلية، الذي نواجهه لا يمكن له أن يتم دون الاستجابة، في الحياة الزمنية، لما حبلت به، لمدة طويلة جداً، حركة انزوائنا التنسّكي الناتجة من إخلاء الذات، وأنجبته في مخاض عسير. ففي الوقت الذي كانت فيه كنيستنا على طول امتداد الألف الثاني مشتتة بين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية، بانتظار مجيء البروتستانتية بمللها ونحلها، وجدنا أنفسنا، مع هذا، في وئام تام مع مصيرنا المشترك من خلال تعريبنا التدريجي الذي حصل بين مرحلة عصره الذهبي ونهضته. إن التحدي الإنطاكي بوحدة فعلية لن ينضم إلى حركة الكنيسة العالمية طالما أنها لم تتأثر كلياً بعشقنا للشرق، وتناصر ولاءنا الأصيل لقيمها الإنسانية التي تتوق إلى التحرر.

1.5 هكذا تتجلى رسالتنا الإنطاكية شبيهة كل الشبه برسالة مسيحيي أوروبا الشرقية وأمريكا اللاتينية وإفريقيا السوداء وآسيا. فبالتعاضد مع جميع إخواننا الذين يكابدون الاضطهاد من أجل إرساء العدالة، اضطهاد يعزز في قلوبهم حب تحرير شعوبهم، فإنَّ العودة إلى

---

(1) يشير الأب يواكيم هنا إلى الخلاف الذي حصل حول الكرسي البطريركي بين الأنبا شنودة ومتى المسكين. أنظر الموقع الخاص بالأب متى المسكين: http://www.fathermatta.com/arabic/index.php

الكنيسة الإنطاكية تعني أن نتيح للكنيسة العالمية الظروف لكي تشاركنا في شغفنا بحرية الإنسان العربي.

2. إعادة بناء لبنان

ولتحرير الإنسان العربي، كان لا بد من إيجاد نموذج يُحتذى به ومختبر، فوقع الاختيار على لبنان.

2.1 إن إعادة بناء لبنان تعني قبل كل شيء أن نقرَّ خيارنا الذي لا رجعةَ فيه بالدولة الأمة، والذي يتعارض مع مفهوم الإمبراطورية والكيانات المختلفة الألوان والشعارات الهادفة إلى هيمنة إمبريالية الطابع.

2.2 أن نقرّ في الوقت نفسه معارضتنا الصلبة لكل نظام يدَّعي تجسيد القدسية، قديماً كان أم جديداً، يحكمه إمبراطور أو قيصر، خليفة أو سلطان، وسواء كان اسمه جمهورية إسلامية أو دولة يهودية أو معقلاً مسيحياً.

2.3 إن إعادة بناء لبنان هي التأكيد على إرادتنا في خلق فضاء تُصان فيه حرية وازدهـار كل فرد أو جماعة بشرية تشعر خطأً أو صواباً أن سلامتها مهددة أو كرامتها منتهكة. إن إعادة بناء لبنان هي في الوقت نفسه ألا نسمح لأي كان، فرداً كان أو جماعة، بالتقوقع داخل خصوصيته. وهي أيضاً أن نحوّل خصوصياتنا إلى تراث مشترك، ونجعل من فوارقنا مجرد ملاءٍ فولكلورية تُزهر حديقتنا الوطنية.

2.4 إن إعادة بناء لبنان هي تحرير القدرات اللبنانية في العيش

المشترك المطمئن والسعيد من صراعات الشرق الأوسط، وإرساء السلام الإسرائيلي الفلسطيني على أساس هذه القدرات المستردة. فإعادة البناء هذه تعني أن نعلن أنه من غير العدل أن نجعل من هذا البلد حلبة مسوّرة لصراعات الآخرين، وأنّ سلام لبنان هو الحجر الأساسي لسلام الشرق الأوسط.

2.5 إن إعادة بناء لبنان هي أن نراهن على أن مستقبل الشرق، بين النموذج الإسلامي والنموذج الصهيوني، ليس أكثر ضمانة على يد سوريا أو إسرائيل، وأن مستقبل الشرق مفتوح في لبنان على تضافر تحرري خلاق لجهود كل العرب الذين اختاروا بملء إرادتهم في المغرب والمشرق الحداثة والديمقراطية. إن مستقبل الشرق يرتبط بشكل أساسي بحملة شعار السلام والتقدم من لبنانيين وفلسطينيين وإسرائيليين. فهؤلاء جميعاً الذين اعتبرهم لبنانيين مختارين، إن ساد الاتفاق والوئام بينهم، هم خير الأكفاء لإنشاء نهضة جديدة.

3. إحياء النهضة العربية

3.1 إن إحياء النهضة العربية هو أولاً تعزيز، ما بين الخليج والمحيط، استمرارية لا حدود لها للغة والثقافة العربية تمتد من امرئ القيس إلى جبران خليل جبران، أيْ بمعنى آخر من «الجاهلية» إلى الحداثة العربية الإسلامية.

3.2 وبناءً على تعزيز هذه الاستمرارية الطويلة المدى، فإن إحياء النهضة العربية هو أن ننكر للإسلام أن يكون أصل العروبة أو أن يمارس

عليها حق الهيمنة. ولكن لأن الإسلام ظهر باللغة العربية ووهبها أسمى عباراتها ونشرها لدى الشعوب غير العربية التي اعتنقت الإسلام، فإن إحياء النهضة العربية هو أن نسلّم بأن المسيحيين الذين كانوا طرفاً في هذا التحول قد دخلوا بكل ثبات في التيار الإسلامي للعروبة وأصبحت ثقافتهم، حسب أمنية كمال جنبلاط، مؤسلمة. فقدموا بهذا دليلاً فريداً عن حرية الكنيسة المسيحية وسط الأديان والثقافات الأخرى.

3.3 وبناءً على تحديد وتعزيز وحدة واستمرارية اللغة العربية وثقافتها، فإن إحياء النهضة لا يمكن له أن يتم في إطار المطالبة بمعايير الحداثة الأوروبية التي ينادي بها خير العناصر العربية والإسلامية إضافة إلى المسيحيين، مطالبة تزداد عزماً وتصميماً في ضوء انبثاق مختلف أنواع الأصوليات الدينية المتشددة. إن الهدف المنشود هو أن نُخضع التراث العربي بمجمله للنقد الكامل، سواء في المجال الديني أو الفلسفي أو الأدبي، وذلك ليس لرد بعض منه وإنما «لإضفاء معان أكثر نقاء على كلمات القبيلة»[1].

3.4 إن إحياء النهضة العربية هو أن نقرّ في نطاق هذه المراجعة الجذرية أن ما من ثقافة عربية جديرة بهذا الاسم دون تقدير للمساهمات التي سبقت هذه الثقافة، خصوصاً تلك التي جاءت عن طريق اليونانية والسريانية. وهو أن نؤكد أن ما من ثقافة عربية في أيامنا هذه دون تفاعل

(1) هذه العبارات مقتبسة من الشاعر الفرنسي ملارميه (Mallarmé : 1842–1898) ومأخوذة من ديوانه:

Le tombeau d'Edgar Poe.

مع مجالات الحداثة الجيوثقافية التي تحتل فيها الفرانكفونية بالنسبة إلى العروبة مكاناً مميزاً.

3.5 وبما أن لبنان ملتقى التراث ومنبعه المتأثر بلهيب الحداثة، فإن إحياء النهضة العربية هو أن نمتنع عن القول بأن للبنان وجهاً عربياً، بل لنقل إن العروبة تبقى منزوعة الوجه طالما أن لبنان ليس وجه العروبة.

4. جملة اقتراحات

كما ترون، لقد وفيت بوعدي. إن تركت جانباً أحياناً عمق المدى التاريخي لاعتبارات الأوضاع الراهنة، فإني لم أقم بها إلا على شكل اقتراحات طوباوية الطابع لا بدّ للبعض أنه سيتكرَّم بالقول بأنها مُبهمة بقدر ما هي سامية نبيلة.

ولكن مع هذا، إن ألح البعض عليّ بتنفيذ المساعي الثلاثة التي وضعتُ صيغها الأولية، وأن أضع اليوطوبيا على محك التجربة اليومية، فإني أُذعن لهذا الطلب بكل رغبة وطيبة خاطر تاركاً على الهيئة المنظِّمة لهذا اللقاء مشاريع ثلاثة قيد الإعداد، إضافة إلى مشروع رابع لم ينتهِ كلياً أهديه بشكل خاص إلى أصدقائي الفرنسيين الحاضرين بيننا.

4.1 فيما يتعلق بالعودة إلى الكنيسة الإنطاكية، لقد أسهمت في إطلاق المطالبة بإقامة مجمع إحياء تحديثي للكنيسة المارونية. إلا أني أرى حالياً ضرورة تنظيم مجمع إنطاكي يلبّي أمنية غبطة البطريرك

أغناطيوس هزيم التي أعرب عنها منذ حوالى عقدين. لقد تشاورنا حديثاً، موارنة وأرثوذكس، بشأن هذا الموضوع، واجتمعنا سوياً مع سيادة المطران جورج خضر بضيافة السيد غسان التويني. خلال هذا الاجتماع، أُتيح لي أن أعرض فكرة عقد مجمع رعوي إنطاكي عند الدخول في العام 2000. وأقصد بالمجمع الرعوي مجمعاً لا يكون عقائدياً ولا كنسياً، بل يطرح تعليماً دينياً مشتركاً قائماً على أساس الاهتداء الروحي العميق، ويصوغ صلاة مشتركة ومصالح تُلزمنا العمل سوية على تحرير الإنسان في ديارنا وتأمين تقدمه.

4.2 أما فيما يتعلق بإعادة بناء لبنان، منكم من يعرف أني أوصي بعقد مؤتمر لبناني للسلام في باريس، مع العلم أنني سأكون أول من يبتهج لرؤية مؤتمر وطني ينعقد في لبنان. ولكن حتى لو حصل، لا أثق في أن ينعقد المؤتمر في ظروف توفر حرية واستقلالية جميع اللبنانيين الذين يريدون سوية بناء لبنان. وإني لا أزال أظن أن مؤتمراً لبنانياً للسلام، يتقدم مؤتمراً عن الشرق الأوسط ويمهّد له دون أن يرتبط به، لن يتمكن، في حال انعقاده في غير مدينة باريس، من بلورة إجماع وطني على نطاق واسع، ومن جعل هذا الإجماع يحظى بدعم دولي يحتاج إليه على المستوى الدبلوماسي والإعلامي.

4.3 أخيراً، فيما يتعلق بإحياء النهضة العربية، فإني أظن أن باريس هي مرة جديدة أنسب مكان لاستقطاب أعمال مؤسسة(Fondation) تُكرس من أجل التنمية العربية للثقافة، وتأخذ في الاعتبار التراث

الإنطاكي بكل أهميته بهدف إحيائه. لكن أياً كان مقر هذه المؤسسة، فإنه في باريس قد سبق واتخذ العرب والمسيحيون والمسلمون مبادرات عديدة في مجال الصحافة والنشر. فهي إذاً، محور استقطاب مميز يجمع حوله كل من يريد إعادة النظر في النهضة العربية وإعطاءها وسائل تنعشها يوم تزول حُميّات التعصب. من ناحية أخرى، مع كل التقدير الذي أكنه لمؤسسات مثل مكتب الجامعة العربية ومعهد العالم العربي ومؤسسات أخرى على غرار اليونسكو أو وكالة التعاون، فإنه من البديهي أن المؤسسة التي أتطلع إليها لا بدّ من أن تكون مؤسسة مستقلة كل الاستقلال عن الدول، تكفل مستواها مكانة المراجع الدينية والأخلاقية التي قد تقدم على رعايتها، ونزاهة الأشخاص الذين قد يقبلون على تمويلها، ومنزلة النخبة المثقفة التي تسهر على وضعها قيد العمل والتنفيذ.

خاتمة

لقد سمع الأصدقاء الفرنسيون الحاضرون في هذه الندوة ندائي الذي وجهته لهم سواء بخصوص إحياء النهضة العربية أو إعادة بناء لبنان، حيث إني أجعل من باريس محور هذين المشروعين. هل من داع أن أضيف أنه، عندما أقيم الصلة بين مشروع العودة إلى الكنيسة الإنطاكية وازدهار المسيحية الفرنسية، حسبي أن أستعيد في ذاكرتي هذين الإنطاكييْن المختاريْن اللذين أسسا جمعية الأدباء المؤمنين والناطقين بالفرنسية، وهما أوليفيه كليمان ورينيه حبشي؟ هل من داع

أيضاً أن أذكّر أن العروبة هي دون شك مصير الكنيسة الإنطاكية، وعلى رأسها الكنيستان المارونية والأرثوذكسية، وذلك سواء في المهجر أو في قواعدها البطريركية، وأن كنيستنا، بفضل وجود الشهود على النزيل الإلهي والكلمة والروح القدس، لها طابع فرانكوفوني في مسكونيته؟

لأجل كل هذه الاعتبارات، أعتقد أن اقتراحاتي هذه وغيرها من الاقتراحات، إنْ كان لا بد لها أن تنشأ في الشرق وتتحقق، فإنها في فرنسا قد تجلب المساعدات الحاسمة.

ولكن اسمحوا لي أن أقوم بربط أنواع تعاضدنا انطلاقاً من مقاربة أخيرة بين الرهانات التي تستجدي انتباهنا أو تهددنا أحياناً.

لويس ماسينيون الذي كان يعتبر كغيره أن فرنسا هي «بنت الكنيسة البكر» لم يتوان عن الحديث عن «رسالة فرنسا الإسلامية». أرى أن هذه الرسالة تخضع اليوم لاختبار عسير، وأنها تتعرض لعواقب قد تكون وخيمة كما قد تكون مدعاة إلى التفاؤل. لقد استقرت روح العداء العميقة بين السكان المسلمين واليهود في فرنسا، المنتمين جميعهم إلى أصل واحد، الأصل المغربي بشكل رئيسي. هذا العداء هو في الحقيقة صراع إسرائيلي عربي يكمن في ما وراء البحر الأبيض المتوسط وفي قلب الأمة الفرنسية، صراع يعجز كلياً عن تفكيك نسيج هذه الأمة، لكن في مقدوره أن يشوهها ويعوق، بالنسبة إلى الجيل الحالي، أن تكون، في وسط العالم المعاصر، الملتقى والينبوع لمجتمع جديد منبثق عن حركات الهجرة واختلاط الأعراق.

فبين مشروع العودة إلى الكنيسة الإنطاكية وإحياء النهضة العربية، دافعت أمامكم عن سلام إسرائيلي عربي قائم على النموذج اللبناني للعيش المشترك الأنيس. إن هذا السلام يعنيكم بشكل خاص، لأنه إن لم يتحقق في لبنان وإن لم تُنصف فلسطين، لن يتأذى سلامكم الوطني بالرغم من الأعمال الإرهابية، إلا أن رسالتكم العالمية ستصبح عاجزة عن بلوغ غايتها.

لقد دافعت عن كنيستي وبلدي وثقافة مسقط رأسي. ثقوا بأني قمت بهذا لأني أعلق أيضاً الأمل على هذه القيم الإنسانية الجديدة التي جاءت بها الأمة الفرنسية بعد قرنين من الثورة وألف سنة من الامتحان والاختبار، والتي أتاحت الفرصة لشعب أن يزرعها في جنان فرنسا لتتفتح بزهو، فتتهلل نفس كل من يتعرف إلى هويته الخاصة من خلال الصورة التي كوّنها في مخيلته عن هذه القيم الإنسانية الجديدة.

إني أناضل من أجل أن يصبح الوجه الإنسانوي اللبناني، في إطار طوباوي للعروبة، مقترناً به كوجه طليعي. وها هو النضال عينه الذي يصبو، في إطار مثالي لقيم إنسانوية جامعة، إلى رؤية وجه فرنسا يبرز في الضباب الشمالي، ويتخلى عن خضوعه الأطلسي، وتعترف به شعوب البلاد المشمسة على أنه صورة حريتها وكفيل نجاحها.

باريس، عشية عيد الصليب، 13، 9، 1987

الجزء الأول

قضايا لبنانية

إشكالية تاريخ لبنان منذ نشوء الإسلام إلى إعلان دولة لبنان الكبير[1] نظرة عامة

تمهيد[2]

يطرح هذا الفصل المستهل به هنا عدداً هاماً من الأسئلة ولا سيما أنه يمس الأحداث الجارية بقدر ما يمسّ التاريخ. لكن بدلاً من صياغة نص جديد في إطار هذه المجموعة، ارتأينا أنه يجوز لنا للمناسبة أن نستخدم نصاً مكتوباً يشرح الأحداث الجارية من منظور التاريخ. لقد كتبنا هذا النص في حزيران/ يونيو عام 1976، أي في الفترة التي بلغت فيها الحرب اللبنانية آنذاك ذروتها في الفظاعة، دون أن تفضي بعد بكل ظروفها وملابساتها حتى على المراقبين الموجودين على

(1) النص مأخوذ من المجلد الثاني للجزء الأول من مجموعة وثائق ونصوص تحمل عنوان : خماسية أنطاكية / أبعاد مارونية.

(2) كل الحواشي السفلية هي من إضافات المترجمة.

أرض الأحداث. لذلك آثرنا أن ندع جانباً ما يُستشف في هذا النص من مشاعر وانفعالات أحدثتها في نفوسنا الحرب آنذاك.

دفعت حوادث لبنان أولئك الذين لا ينظرون إلى التاريخ إلا من سطوره العريضة إلى الاعتقاد أن هذه الحوادث ليست إلا صراعاً ثانوياً بل هامشياً في العلاقات بين الشرق والغرب. لذا لم يتردد البعض منهم إلى تشبيه هذه الظاهرة المطروحة بظاهرة الأقدام السود[1]. إن الهدف المنشود في هذه الرسالة هو ربط الصراع الحاصل بحلقات الصراع السابقة، والتذكير بالمراحل الأساسية لمسيرة طويلة بغية استخلاص بعض الثوابت وتقويم رهاناتها على ضوء مستقبل العلاقات الإسلامية المسيحية على جانبي ضفاف البحر الأبيض المتوسط.

غنيٌّ عن البيان أنه عندما نسلط الضوء على الطائفة المارونية بشكل خاص لا نهدف إطلاقاً إلى انتزاعها من تاريخها المشترك مع مسيحيي الشرق كافة. إلا أنها تتحمل دون أدنى شك مسؤولية خاصة في ما يجري حالياً. لذلك ينبغي أن نبرز السمات التي، وإن ميزتها عن بقيّة الطوائف المسيحية، تدنيها من بعض التصرفات للأحزاب والحركات الإسلامية.

من البديهي كذلك أن هذا العرض التاريخي يلتزم بمعطيات مقبولة عموماً، ويقدم قراءة مطروحة كغيرها من القراءات على بساط النقاش الحر.

(1) تطلق هذه العبارة على الأوروبيين الذين استوطنوا إفريقيا الشمالية وبالأخص الجزائر قبل استقلالها.

أخيراً، ليس من العبث أن ننبه القارئ، بعرضنا كمّاً كبيراً من المعطيات التي يبدو بعضها ذا قيمة عالية، إلى أن كاتب هذه السطور لن يعطي نفسه حق التعبير عن وجهة نظره الخاصة إلا في الخاتمة.

1. الموارنة وكبرى مراحل الخلافة العربية

ينتسب الموارنة إلى قديس ناسك يقال إنه عاصر مار يوحنا كريزوستوم[1] وراسله بين نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الميلادي. إلا أن تاريخهم الحقيقي ابتدأ مع العصر الهجري، كما يقول أهم بطاركة الموارنة في العصر الحديث، البطريرك اصطفان الدويهي (ت. عام 1704 م) الذي يرى أن تاريخ الموارنة يتطابق في الواقع مع التاريخ الإسلامي.

إثر الغزو العربي لبلاد الشام، لحق بطريرك أنطاكيا الجيوش البيزنطية التي هزمها فرسان الصحراء، فخلا الكرسي البطركي من شاغله لفترة طويلة. في هذه الفترة لم يكن رهبان دير مار مارون في وادي نهر العاصي يأبهون لشرعية كنسية، ولم تكن الأمور الفلسفية تشغلهم بقدر ما كانت تشغلهم أسباب العيش، فاتخذوا بطريركاً لهم بانتخابهم واحداً منهم، فتحولوا بذلك من حركة نضالية تمارس الشغب ضمن الكنيسة إلى كنيسة مستقلة بذاتها، ودشنوا مصيراً سُمي

(1) ولد مار يوحنا كريزوستوم في انطاكيا عام 344 م. وتوفي في الكابادوس عام 407 م. أسس الكنيسة اليونانية وأصبح مطران القسطنطينية. عُرف بصرامة مبادئه وحماسته الإصلاحية ما أدى به إلى المنفى حيث توفي.

فيما بعد وطنياً. لكن قبل أن نحدد طبيعة هذا المصير، سنكرس جهدنا لاتباع مجراه باستعراض قدر من المراحل يوازي الفترات الكبرى للتاريخ الإسلامي.

إن الفترة الأولى التي تغطي القرون الوسطى الأولى والتي تمتد من الفتوحات العربية إلى الحروب الصليبية هي فترة مظلمة. يبدو أن الموارنة لم يتأثروا خلالها بتألق الأمويين أو بعظمة العباسيين. ففي حضن العالم المسيحي المدمج في الخلافة الإسلامية، قلما فرّق المؤرخون المسلمون بين الفئات المسيحية التقليدية الثلاث المؤلفة من الملكيين والنساطرة واليعاقبة. مع أنه في خلال هذه الفترة، أي بصرف النظر عن علاقتهم مع الغرب التي ستتأكد في الفترة اللاحقة، يتضح وجود الموارنة وتتثبت شخصيتهم تبعاً للإسلام.

الموارنة محاربون

في الواقع، يتصف الماروني منذ ذلك الوقت بصمود دائم ومقاومة مستمرة. فأول صورة ساذجة تخطر بباله تُصوّر بطريركه يشن هجوماً على رأس فصائله في سهل الزيتون في منطقة أميون التي هي دائرة نفوذ قديمة العهد للأرثوذكسية في ولاية طرابلس، والتي لا تبعد إلا بضعة كيلومترات عن المعقل الحالي للرئيس فرنجية.

لكن أياً كانت صدقية هذه الصورة، فهي لا تختلف كثيراً عما حصل عام 759 م، وحفظه جميع اللبنانيين. ففي منطقة المنيطرة (التي

بني فيها فيما بعد دير الصليبيين) حصل تمرد في أعالي جبل كسروان. اتخذ المتمردون رئيساً لهم ورفعوا الصليب شعاراً. ثم تمكن هؤلاء من احتلال جزء من البقاع واتجهوا نحو منطقة بعلبك. إلا أن كميناً داهمهم على حين غرة فأُجبروا على التراجع إلى حصن المنيطرة بعد أن تكبدوا خسائر فادحة. حينئذ حاصر الوالي العباسي القلعة إلى حين استسلامها، وأزال بالسيف عدداً كبيراً من سكان القرى المجاورة. كان العقاب قاسياً إلى حد أجبر القاضي الكبير الأوزاعي (707 - 774 م)، الذي لا تزال مدينة بيروت تكرم ضريحه الموجود بالقرب من مطار خلدة، أن يرفع إلى الخليفة احتجاجاً يستنكر فيه عدم التفريق في العقوبة بين البريء والمذنب.

الموارنة مبشرون

لقد تأثر الوجود الماروني القديم بالنضال المسلح، إلا أنّ للمسعى التبشيري فضلاً لا يقل أهمية، حتى أنه يمكننا التساؤل إن كان سبب الهجرة المارونية إلى لبنان الانسحاب القهري، كما هو مطروح عموماً، أو هو التقدم التبشيري والاستيطاني لرهبان مار مارون. مهما يكن من أمر، فإن النطاق الماروني التقليدي هو تلك المساحة، غير المعبدّة في تلك الفترة، التي ترتفع من سواحل جبيل المتوسطية حيث يصب نهر أدونيس لتصل إلى منابع نهر العاصي في ربوع بعلبك حيث ظلت عبادة جوبيتر وباخوس قائمة إلى عشية العصر الهجري.

الموارنة رهبان

من جهة أخرى، لا شك أن قلب هذا المعقل الماروني التقليدي قد تشكل في وادي قاديشا المقدس الذي يستمد اسمه من جاليات الورعين والنساك والرهبان الذين سكنوه في البدء وانتشرت بصماتهم على الجماعة الكنسية كافة. لهذا وصف الأب كونغار[1] وادي قاديشا المقدس، إضافة إلى الكنيسة الإيرلندية، على أنه يتسم بالطابع الرهباني وليس الأسقفي. مما يشير إلى أن الدور الذي تلعبه حالياً الجمعيات الرهبانية اللبنانية بعيد كل البعد عن الارتجالية أو الاعتباطية.

استعراب قديم العهد

يقال إن الموارنة، السوريين ذوي الأصل الآرامي، قد تكلموا السريانية لغاية القرن الثامن عشر. يروى بشكل خاص أن السمعاني الكبير، أمين مكتبة الفاتيكان ومبعوث الحبر الأعظم إلى المجمع اللبناني في عام 1736 م، قد تكلم «بلغة المسيح» مع أمه العجوز التي كانت تسكن في قرية حصرون الواقعة شمال لبنان. ومع هذا، فإن أول أكبر شاهد على الروحانيات والقانون الماروني هو كتاب لم يعد يعرف إلا باللغة العربية ويحمل عنوان «كتاب الهدى»، ويعود تاريخه إلى القرن الحادي عشر الميلادي. يُظهر هذا الكتاب أن الهجرة إلى

(1) من أهم علماء اللاهوت وخبراء الفاتيكان، وممن كتبوا عن الكنيسة المسيحية وتوحيدها. تأهل منصب كاردينال عام 1994 في عهد البابا يوحنا بولس الثاني.

لبنان لم تفصل الكنيسة المارونية عن أصولها في منطقة العاصي حيث نزحت منها إلى حلب وأورفا، وكذلك إلى تكريت على ضفاف نهر دجلة. إضافة إلى هذا، يُبرز الكتاب أن تعريب الكنيسة القديم ينتشلها من الخصوصية الإقليمية المتعصبة التي يزجها فيها الداعون إلى السريانية، وينقذها أيضاً من طرافة منظري الأصل الفينيقي للموارنة.

الموارنة فلاقة[1] قبل الساعة؟

في باب الانتماء العرقي، لا بأس أن نستذكر انتماء موارنة لبنان المفترض إلى قبائل مريعة سماها الإغريق « مردايتاي»، وعرفها العرب باسم «الجراجمة». خلطت التقاليد المارونية التسميتين المعربتين ضمن اسم واحد هو «المردة» واعتبر الموارنة أنفسهم ورثة هؤلاء الفلاقة القدماء الشرسين، حتى أن مجموعة من الميليشيات استعادت هذه التسمية خلال الأحداث اللبنانية الأخيرة.

ضمن رسالة جامعية تم الدفاع عنها في باريس، ونشرتها دار النشر غوتنير (Geuthner)، كشف السفير السابق عادل اسماعيل، مؤرخ لبنان الشهير، عن غياب كل علاقة نسب مباشر بين الموارنة والمردة أو الجراجمة، إذ إن هؤلاء هم قبائل سكنت جبال الأمانوس ثم استقرت في لبنان في خدمة الإمبراطورية البيزنطية لتكون لها جداراً

(1) الفلاقة (م. فلاق) كلمة تستخدم في المغرب العربي وتعني : قطاع الطرق. إلا أن هذا المعنى السلبي قد اتخذ منحى آخر خلال الحرب الجزائرية وأصبح يدل على المجاهدين الذين ناهضوا الاحتلال الفرنسي.

منيعاً، أي لا جدوى من أن يتباهى الموارنة أو أن يدّعوا أنهم ابتزوا الخلافة الأموية وأجبروها على دفع الخوّة مرتين : مرة في ظل معاوية ومرة في ظل عبد الملك بن مروان بين عامي 687 م و688 م. وخير لهم ولمعرفتهم التاريخ ألا يثقلوا كاهلهم بهذا الولاء الخاص بأتباع الكنيسة البيزنطية. في الحقيقة، عندما اضطر الجراجمة للرحيل إلى ما وراء الشمال السوري لموطنهم الأصلي، تم دمج أولئك الذين اختاروا الاستقرار في لبنان ضمن الطائفة المارونية التي أثبتت فيما بعد نزعتها إلى التمرد والعصيان.

تعزز هذا الاندماج بشكل ساطع في المرحلة الثانية للتاريخ الماروني والتي، مقارنة بالتاريخ الإسلامي، تمتد من الحملات الصليبية إلى الغزو العثماني لبلاد الشام. من المعروف أن الحملة الصليبية الأولى وجدت لدى الموارنة دليلاً وثيقاً وعوناً فعّالاً على طول الشاطئ السوري الفينيقي، حتى أنه يقال إنّ أكثر من ثلاثين ألف محارب ماروني قد اندرج في صفوف الحملة الأوروبية، من بينهم فرقة من نخبة الرمّاح، الأمر الذي يُعتبر ظاهرة عظيمة الشأن في تلك الفترة نظراً إلى نوعية القوة العددية وكميتها. لذلك لا يمكننا أن نندهش من ردة فعل المماليك عندما غادر آخر صليبي عائداً إلى أوروبا.

اعتناق الموارنة الطقوس اللاتينية ودخولهم في نظام إقطاعي

تفتتح هذه المرحلة ما سُمي بعملية « اعتناق الطقوس اللاتينية»، التي لم يقصد منها اعتناق الموارنة للدين الكاثوليكي الذي يزعمون

ديمومة الارتباط به، بقدر ما كانت تبنيهم لبعض العادات والتقاليد الكنسية والطقسية الرومانية.

وُضعت عملية تبني الطقوس اللاتينية تحت إشراف الإفرنج فاتخذت منحىً تثقيفياً دفع ملوك فرنسا فيما بعد إلى اعتبار الموارنة «جزءاً لا يتجزأ من الأمة الفرنسية». وإن رأينا في هذا الأمر ما يتجاوز الشعار الإعلاني، فإن نظرية بعض الكتاب الموارنة التي تربط تطبيق النظام الإقطاعي في جبل لبنان وفق الطريقة الإفرنجية بهذه الفترة تستوجب اهتماماً كبيراً.

تشرّق الإفرنج وتفرنس الشرق

إن المثاقفة تستوجب التعايش والاتحاد الوثيق. فظاهرة تفرنس الموارنة تتزامن مع أولى ظواهر تشرُّق أوروبا المسيحية التي عبر عنها فوشيه دي شارتر[1] قائلًا : لمَ نعود إلى الغرب والشرق يحقق أمانينا. تجلت هذه الظاهرة ليس فقط عند الملك الصليبي المحروم من دينه، فريدريك الثاني، الذي عُرف عنه حبه للإسلام حتى قيل إنه جاء على رأس حملة صليبية رغبة منه بسماع نداء المؤذن، وإنما تجلت كذلك لدى الحملات العسكرية كافة التي استقرت في الشرق، وذلك من خلال تبنيها أعراف البلد وعاداته ولغاته. مما يعني أنه لا يمكن قصر آثار الوجود الإفرنجي على الحصون والقلاع أو حصرها في الطائفة

(1) فوشيه دي شارتر (Foucher De Chartres) جاء مع الحملة الصليبية الأولى حيث أرّخ أحداثها وبقي في القدس إلى أن توفي فيها عام 1127 م.

المارونية فقط، بل هي تتجاوزها بكثير لتطغى على أهالي بلاد الشام من سكان الجبال والسواحل معاً. وإن تسنّى لنا الحكم على الأمر من خلال الشعر الأشقر والعيون الزرق، فإن مسلمي بلاد الشام الذين كتب عن رفاهية عيشهم في ظل الإفرنج الرحالة الأندلسي ابن جبير المعروف بنفوره من أعداء الرسول وقلة تعاطفه معهم، يقدمون أدلة معبرة عن الطعم اللاتيني على جسد الشرق وكذلك عن تفرنس الشرق الجلي.

ردة فعل المماليك

عندما ترك الصليبيون الشرق وهاجر جزء من الطائفة المارونية إلى جزيرة قبرص، تعرض ما تبقى من الطائفة المسيحية إلى معاملة قاسية عقاباً لهم من قبل المماليك. بصورة عامة، تبدو هذه المعاملة أقل حدة مما كابده المسلمون المنشقون، سواء تواطأوا أم لا مع الإفرنج. ومن سخرية القدر أن اضطر سلطان مملوكي أن يلتمس اللجوء عند رهبان دير قنوبين الحصين في أعالي وادي قاديشا، وحين تمكن السلطان من العودة إلى أراضيه بعد أن استتبت الأمور له وركزت، أعفى الدير ومزارعه من دفع الخَراج.

إبادة المسلمين

بالمقابل، خضعت طوائف الشيعة والدروز والنصيريين إلى عملية عسكرية كادت أن تتحول إلى إبادة جماعية لولا بسالة هذه الطوائف

وشجاعتها. فبموجب الفتوى الشهيرة التي جاء بها قاضي دمشق الكبير ابن تيمية، انطلقت حملة عسكرية على كسروان التي كان أغلب سكانها من المتاولة (شيعة لبنان)، وقامت بمذبحة قلّ نظيرها، سهّلت فيما بعد إقامة التجمعات الرهبانية والزراعية والتربوية المارونية.

غالباً ما تُقدم المرحلة الصليبية على أنها مرحلة تشيّع فيها الموارنة للغرب اللاتيني والإفرنجي، وبالتالي يُنظر إليها على أنها مرحلة تميَّزت بالموقف الرافض للخضوع للإسلام المحيط بهم. إلا أن هذا التقديم يستحق أن يُعاد النظر فيه ضمن إطار التطور العام الذي حصل في بلاد الشام، والذي لم يكن سببه الإفرنج الذين احتلوا الساحل الشامي ومناطقه الجبلية فحسب، وإنما يعود كذلك إلى أسباب داخلية حصلت قبل مجيء الإفرنج، وأشار إليها لويس ماسينيون بعبارة «العصر الإسماعيلي للإسلام». لقد أدرك صلاح الدين الأيوبي الذي تمرن على يدي خاله نور الدين خطورة الأمر، وكذلك المماليك من بعده فنفذوا إرادته الصلبة بإعادة الإسلام الشامي إلى السنة التي ابتعد عنها كما ابتعدت عنها مصر في عهد الفاطميين.

برأينا، ما يسمَّى خطأً بالموقف العنيد والمتواصل الرافض للخضوع للمحيط ظهرت طبيعته بقوة بعد ذهاب المماليك بتقاطعه مع حركة هامة انبثقت من قلب المجتمع السوري وأدَّت، ولو من خلال مصائب كبرى، إلى تحقيق منجزات الفترة المعاصرة. فما بين الغزو العثماني في فجر القرن السادس عشر وحملة نابليون على مصر في أواخر القرن الثامن عشر، عرفت الديانتان المسيحية والإسلامية معاً

وبشكل خاص الموارنة والدروز تطوراً متزامناً وضع حجر الأساس لمشكلات الأحوال الراهنة والخطوط الأولى لبعض الحلول.

في ظل نظام الامتيازات الأجنبية

تتميز هذه الفترة لدى الموارنة وجميع مسيحيي دار الإسلام باتفاقيات الامتيازات الأوروبية التي عُقدت بين الباب العالي والقوى الأوروبية. فلقد وقّع أولى هذه الاتفاقيات السلطان العثماني سليمان العظيم وجان دي لا فوريه، سفير فرانسوا الأول ملك فرنسا. جُددت هذه الاتفاقيات عدة مرات خصوصاً في عهد هنري الرابع ولويس الرابع عشر، ولقد نصّت على توسيع البنود المتعلقة بالأشخاص والملكيات الفرنسية لتشمل مسيحيي الشرق وبشكل خاص الطائفة الكاثوليكية التي وُضعت قبل الأوان تحت حماية فرنسا.

مما يعني أن الوجود الماروني في العصر الحديث تأثر، كما حدث تماماً في العصور الوسطى، باحتكاك مباشر بالحضارة الفرنسية. تشهد على ذلك مساهمة الموارنة في ترجمة العهد القديم إلى لغات عديدة في ظل لويس الثالث عشر، وتعيين اثنين منهم أساتذة في المعهد الملكي (Collège Royal)، الذي عُرف فيما بعد باسم معهد فرنسا (Collège de France).

تمسك الموارنة بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية

تعزز ارتباط الموارنة بالكثلكة الرومانية بشكل خاص عندما أسس

البابا غريغوار الثاني عشر مجمع روما الماروني الذي خرّج حتى عهد حديث القسم الأكبر من أحبار الموارنة. لذلك سطع الاسم الماروني في العديد من المؤسسات الثقافية والجامعية الأوروبية، وعلى رأسها مكتبة الفاتيكان ومعهد الحكمة (Collège de la Sapience) والجامعة البابوية في روما.

ظهور الآباء اليسوعيين على المسرح

إن مساهمة رهبنة اليسوعيين في المسعى الروماني أساسية كما ستكون لاحقاً في المسعى الفرنسي. في البداية كان أول مبعوثي روما إلى الموارنة هم الفرنسيسكان الذين كانوا على صلة مباشرة بحماية الأراضي المقدسة[1]. ثم جاءت بعدها جمعية القديس إينياسيو لتحل محلها في علاقتها مع الموارنة.

إلا أننا قبل أن نشير إلى الطريقة التي تمكنت من خلالها رهبنة اليسوعيين من إقحام الموارنة في مخططاتها الإسلامية، لنتذكر في هذا السياق رحلة الأب اليسوعي جيروم دنديني[2] إلى جبل لبنان والتي قام

---

(1) يعود وجود هذه الحماية إلى القرن الثالث عشر. فمن مهامها الأساسية، كما نستشف من اسمها، حماية الأراضي المقدسة والحفاظ على مصالح الطائفة الكاثوليكية في فلسطين. أنظر موقع الإنترنت الخاص بها : http://www. custodia.org

(2) أنظر الكتاب الذي أصدرته أخيراً جامعة الكسليك : Jérôme Dandini, Voyage du Mont Liban.

بترجمتها وتنقيحها الأب ريشارد سيمون منتقداً من خلالها بوسييه[1] ومقدماً نظرة توحيدية طيبة تجاه كنائس الشرق.

لقد أبرز ريشارد سيمون أولى التصورات الودية للإسلام في الغرب مثيراً بذلك استنكار أسياد دير بور روايال[2] (Port-Royal).

الاستشراق وبدايات نشأته

تأثر التاريخ الماروني في العصور الحديثة بهذا التفاعل مع الإسلام. لذلك يجب أن نأخذ في الاعتبار أن المسعى الماروني الذي نُسبت إليه أحياناً تهمة الإسهام في دخول أوروبا إلى الشرق العربي المسلم، هو قبل كل شيء من الناحية الثقافية مساهمة في تشرُّق الغرب محلياً ثم في الشرق نفسه. وهذا يشكل بذاته أول تصحيح يُقدم بخصوص عملية تشرُّق الغرب. ففي الوقت الذي انفتح فيه الغرب في عصر النهضة على العصور الإغريقية الرومانية القديمة المعروفة

(1) يشير هنا الأب يواكيم مبارك إلى الخلاف الذي وقع بين الأب سيمون وبوسييه حول ترجمة العهد القديم التي قام بها الأب سيمون. أنظر :
Histoire critique du Vieux Testament (1678), Nouvelle édition annotée et introduite par Pierre Gibet.

(2) هم فئة من الرجال اختاروا منذ عام 1637 التزهد والتقشف، فسكنوا بعيداً عن مدينة باريس في دير بور روايال. انظر :
Thérèse Monthéard, *Chroniques de Port-Royal*, numéro spécial, 2004, «Port-Royal des Champs».

والموقع الألكتروني الخاص بهم : http://www.port-royal-des-champs.eu

باسم العصور الكلاسيكية، وخصّ الكنيسة اليونانية عن سائر كنائس الشرق باهتمام منفرد، فإن مساهمة الموارنة في عملية تشرُّق الغرب تتجلى من خلال إثارة انتباهه على الشرق العربي المسيحي أولاً، ثم على الشرق المسلم. فباعتراف المستشرقين أنفسهم، أمثال مالفيزي وليفي ديللا فيدا ونورمان دانيال، يعود الفضل إلى الموارنة في وضع حدّ للشتائم والأقوال المستهجنة التي كانت تتلفظ فيها أوروبا بصدد الإسلام. ويظهر هذا مع أول ترجمة جديّة للقرآن في العصور الحديثة قام بها ماراتشي الذي كان يتعلم السريانية والعربية على يدي راهب ماروني في روما.

فرنسا في الشرق والتوازن الأوروبي

تزداد المساهمة المارونية أهمية على المستوى السياسي لتصبح السمة المميزة للحقبة التي تستقطب اهتمامنا. فخلافاً لما يقال إن الموارنة مدّوا أجسادهم جسراً لمساعدة أوروبا المسيحية على فرض هيمنتها على الشرق المسلم في الحقيقة وبغض النظر عن مقاصد هذا ونيّات ذاك، لقد ساعد الموارنة فرنسا، باستنادها إلى الشرق، على إرساء استقلالها داخل أوروبا. وهنا يكمن المغزى الحقيقي لنظام الامتيازات. فالوجود المسيحي في الشرق العربي المسلم المتمثل خصوصاً في الوجود الماروني أمّن لفرنسا مجسّاً في شرق البحر الأبيض المتوسط، ومنحها إمكانية إبرام كل أنواع الاتفاقيات والتبادلات معه دون أن تسيطر عليه. فضمنت لنفسها ظروفاً جيدة

حفظتها من الهيمنة الأوروبية سواء كانت هيمنة الإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة أم الإمبراطورية النمساوية المجرية أم هيمنة انكلترا أم النازية. لقد أدرك أسياد فرنسا، من فرنسوا الأول إلى شارل دي غول مروراً بنابليون، أهمية بل ضرورة المحافظة على علاقات ودية مع الشرق للحفاظ على مكانة بلادهم في أوروبا. وهذا لا بدّ أن يكون موضع ابتهاج الشرق العربي المسلم في الماضي كما في الحاضر. فالوجود المسيحي الذي وجد في الطائفة المارونية حافزاً بدا وعراً أتاح إذاً، لفرنسا في العصور الحديثة أن تدخل دار الإسلام من عتبة وعرة دون شك لكنها آمنة؛ فاجتازها العلماء والشعراء وكذلك السفراء والمبشرون والتجار ثم عقبهم الجنود.

2. الموارنة والدروز

ربما يبدو تاريخ الطائفة المارونية وعلاقاتها المميزة مع الكرسي المقدس وفرنسا، مقارنة بالتاريخ الإسلامي، مليئاً بالغموض وعُرضة لاستنكار أبناء الطائفة اليوم المتأثرين كغيرهم بالشعارات المعادية للإمبريالية، لو لم نلحظ، بالموازاة مع هذه العلاقات وبالتضافر معها، ظهور ثقة بالذات لدى المسلمين شبيهة تماماً بثقة أكبر لدى الموارنة انبثقت من التقائهما أول محاولة وطنية لاستقلال ذاتي داخل الإمبراطورية العثمانية. لقد أشرنا إلى التلازم أو بالأحرى الائتلاف الذي حصل في القرون الوسطى بين وجود ماروني مشاكس ومحاولات إسلامية انشقاقية، وشهدنا أيضاً أن اتفاق النضال وترابط

المصير في العصور الحديثة كان على مستوى القرار. إذاً، فمغامرة الدروز والموارنة المزدوجة هي التي تفتح المجال هنا لسلسلة جديدة من الملاحظات المتعلقة بالفترة ذاتها.

أصل الدروز

يستمد الدروز اسمهم بشكل غير مؤاتٍ من محمد أبي عبد الله الدرزي، تلميذ الحاكم (996–1020 م)، الخليفة الفاطمي في القاهرة. اشتهر هذا الشخص الغريب الأطوار لدى الغرب بهدمه كنيسة القيامة، فهيأ الذريعة لقيام الحروب الصليبية. بعد اختفاء الحاكم في جبل المقطم الذي ينوف على مدينة القاهرة، اجتهد دعاته في نشر تعاليمه في بلاد الشام، فوجدوا أرضيّة مؤاتية لهم في وادي التيم في تخوم جبل الشيخ ثم في جبل لبنان نفسه. فعُرف هذا الجبل منذ ذلك الحين باسم جبل الدروز علماً أن هؤلاء لم ينتشروا قط في شمال المتن منذ أن كبح المماليك امتدادهم عام 1305 م. تمركز إذاً، الدروز في الجنوب ووجد الموارنة في الشمال فتوطدت بين الطائفتين أواصر الاتفاق والانسجام دون الاكتراث لأصولهم الدينية المختلفة.

لقد ذكر لامنس[1] رحالة في ذلك العصر كان قد أعطى عن

(1) هو الأب اليسوعي هنري لامنس، مستشرق لامع ومن أشهر من كتب في مجال الإسلاميات. شغل منصب رئيس تحرير مجلة المشرق في بيروت لمدة طويلة، أمضى جل حياته في لبنان حيث توفي عام 1937 م. انظر :
L'oeuvre du Père Lammens, Revue du monde musulman, 27, (1914 : 90-140).

الدروز أوصافاً يمكن أن تكتب بامتياز عن موارنة تلك الفترة. لقد وصفهم قائلاً: إنهم جبليون نشيطون، ومشاكسون شجعان، ورماة بارعون. سلاحهم القوس والنشابة والبندقية وهم يصنعون أسلحتهم بأيديهم... يفضلون المسيحيين على الأتراك والمسلمين.

تفاعل مذهبي مع الموارنة

إن أول علاقة بين الموارنة والدروز تستحق الذكر هي اعتناق الدين الماروني من قبل بعض أمراء الدروز مع أفراد عائلاتهم، ومن أشهرهم إلى يومنا هذا هم آل شهاب. وهذه دون أدنى شك ظاهرة هامة بل فريدة في تاريخ العلاقات الإسلامية المسيحية والتي لا يمكن إدراجها في سجل التبشير الديني. إذ يبدو أن سبب اهتداء البعض هو شفاءٌ معجزي قام به رهبان موارنة تم استدعاؤهم لمعالجة أمراء دروز يحتضرون. فلقد استرد الأمراء كامل عافيتهم بعدما مُسحوا بالزيت المقدس، فطلبوا إثر ذلك أن يتعمّدوا مع جميع أفراد أسرهم ومزارعيهم. أما السبب الآخر للاهتداء فهو الاندماج التدريجي. فعدد السكان المتزايد للطائفة المارونية إضافة إلى ميلهم للأعمال والمقاولة وإلى تقدم ثقافي أكيد ساعد على توغلهم في منطقة الدروز، وعلى دمج بعض المراكز السكنية دمجاً مذهبياً ترافق بانصهار ماروني في المجتمع الدرزي، إلى حدّ لُقب فيه الرهبان الموارنة في روما فيما بعد بـ «الرهبان الدروز».

محاولة مشتركة لاستقلال ذاتي سياسي

يعلم الجميع المعاملة التي أعدها في القرن التاسع عشر الأمير بشير الثاني (1767 – 1850 م) لثلاثة من رعاياه كانوا قد تباحثوا أثناء الطريق لمعرفة إن كان الأمير بشير مارونياً أم درزياً أم مسلماً، وعلاوة على ذلك تجرأوا على الطلب من المعني بالأمر أن يُنهي خلافهم. فأمر الأمير بجلدهم بالسوط.

تبين هذه الرواية أن الائتلاف اللبناني بين الطائفتين المارونية والدرزية ذو طابع سياسي غير ديني، وهو أول محاولة من هذا النوع ضمن الإمبراطورية العثمانية صنعها سموّ الأمير فخر الدين الثاني (1572 – 1635 م). من الجدير بالذكر أن محاولة إصلاح وطنية حديثة العهد قد حصلت بانقلاب عسكري على يدي جنرال ترجم حياة هذا المؤسس الأميري للبنان الحديث وحمل رسالته. إضافة إلى هذا، إن حركة الاستقلال الذاتي اللبنانية التي قام بها الأمير فخر الدين الثاني المعاصر لهنري الرابع (والتي يبدو أنها امتدت من حلب إلى القدس) قد سبقت بحوالى قرنين الحركات الاستقلالية السعودية والمصرية وتميزت عن الاثنتين بعدم تضمنها باعثاً دينياً، وباحتوائها تركيبة تعددية في مدها الوطني.

العون الماروني العسكري

إن المساهمة المارونية السياسية في الإمارة الدرزية هي في خلاصة الأمر من نوع عسكري. ولقد تجلت أهميتها في عصر فخر

الدين الذي وصل عدد جنود جيشه إلى حدود أربعين ألف جندي، بل إلى مئة ألف كما يقول البعض. إلا أن هذه المشاركة المارونية في المحاولات العسكرية للأمراء الدروز قد سطعت في معركة عين داره عام 1711 م. فالعون العسكري الماروني كان قاطعاً لأن القيسيين تغلبوا نهائياً على اليمنيين. وإن انقسمت فيما بعد القيسية بين يزبكية وجنبلاطية فالسبب لم يكن خلافاً دينياً قط وإنما هو خلاف بين اتجاهين من ذوي الرَّحم داخل فئات سكانية أحرزت في بعضها بعضاً تأثيراً عميقاً.

المساهمة المارونية الثقافية

إن التقارب الثقافي بين الطائفتين المارونية والدرزية يتجاوز بكثير التعاون العسكري. فلقد كلّف الأمير فخر الدين بطريركاً مارونياً كان وقتئذ طالباً في معهد روما، هو جورج أميرة، بمهمة استكشافية لإقامة تحالف مع حاكم منطقة توسكانا في ايطاليا. وعندما اضطر الأمير إلى مغادرة بلاده متخلياً عن السلطة لأخيه يونس، أقام في الغرب (1613 – 1618 م) قدر ما بقي في الماضي سان لويس في الشرق (1250 – 1254 م). فسنحت له إقامته في الغرب أن يستكشف تقدمه العلمي والتقني والاقتصادي وأن يطبق عدداً من الإنجازات في لبنان، من بينها صناعة الحرير وإنشاء مدرجات زراعية في المناطق الجبلية تصلح لكل أنواع المزروعات. فيما بعد، عندما أوشكت محاولته الاستقلالية على الزوال تحت وطأة الباب العالي الذي نفذ فيه حكم الإعدام في

القسطنطينية، حاول أصدقاؤه من الطائفة المسيحية إيهام البابا أن الأمير فخر الدين مستعد للتعمد إن وافق الغرب على تقديم مساعدة فعالة له ضد العثمانيين. وأخيراً، لا ننسى فضل الأمير فخر الدين في بناء خان الإفرنج الشهير في مدينة صيدا والذي لا يزال حتى اليوم ملكية الجمهورية الفرنسية.

إن مظاهر الاتفاق هذه بين الطائفتين المارونية والدرزية شهدت في غضون الفترة الأخيرة التي تقودنا إلى الأحداث الحالية تناقضات وتكذيبات مأسوية تتعارض مع نتائج وطنية إيجابية. لذلك سنحاول بعناية فائقة أن نضع عدداً من العلامات تؤشر إلى علاقات الطائفة المارونية بالإسلام ما بين حملة نابليون على مصر والحربيْن العالميتيْن، والتي شهدنا أثناءها بروز دولة لبنان الكبير ثم الاستقلال اللبناني.

ثورة اجتماعية

لقد رافق الولاء الماروني للإمارة الدرزية في عهد الأمير بشير الثاني الذي دام فترة طويلة (1789 – 1840 م) انعطافات هذا السياسي المحنك، وساهم هذا الولاء في السعي المصري إلى تحقيق الاستقلال الذاتي داخل السلطنة العثمانية. وكانت هذه المحاولة قد تأثرت بالنهضة المصرية التي جاءت كردة فعل على الحملة الفرنسية. إلا أنه في نهاية ذلك العهد الذي أودى بصاحبه إلى المنفى في القسطنطينية (1840 – 1850م) اتضحت الغاية الحقيقية لهذه المحاولة لدى الطائفة المارونية. فمجاراة الموارنة للإمارة وتعاضدهم معها نتج

عن قناعة وإيمان بأنّها أصبحت قادرة على إخضاع إقطاعيّي الطائفة. لذلك عند زوال الإمارة وانقسام جبل لبنان إلى قائمقاميتين درزية ومسيحية يفصلهما طريق بيروت - دمشق، ثار المسيحيون على مشايخهم، وصدقوا على أول ميثاق اجتماعي ضمّ في مار انطلياس جميع الطوائف الدينية في لبنان. فحظيت المساهمة المارونية بطابعها السياسي وصياغتها العسكرية على تأييد اجتماعي ملحوظ، وإن أصبح مدى هذا التأييد محدوداً، بل زال بسرعة. كما يشهد عليه ما تفرع عنه من لبنان مركانتيلي. تجدر الإشارة هنا إلى أنه في مرحلة معينة ناصرت البطريركية المارونية مناصرة كبيرة ضد الأرستقراطية الإقطاعية طبقة الفلاحين التي تنحدر عموماً منها.

تدخل انكلترا

لم تتحمل القوى العظمى مشقة انتظار نتائج هذا التحالف الاستقلالي اللبناني، الذي تحول فيما بعد إلى تحالف إصلاحي، لتُجند له كامل اهتمامها بهدف إحباطه. فقد قام الباب العالي كعادته باستغلال خلافة بشير الثاني الصعبة لإثارة الفتن على ضفتي طريق بيروت - دمشق وتحريض الدروز ضد المسيحيين. إلا أن السلطنة العثمانية لم تكن لتبلغ غايتها بهذه السهولة لولا دعم انكلترا لها. ففي الوقت الذي منحت روسيا القيصرية نفسها منذ عهد كاترين الثانية حق نشر حمايتها على الطائفة الأرثوذكسية، نجح الإنكليز في استقطاب صداقة الطائفة الدرزية ضد أصدقاء فرنسا المعهودين. فأحداث عام

1860 م التي شهدها لبنان ودمشق، وفاقت بفتكها دون أدنى شك أحداث 1975 - 1976 م أرست الحاضر على الماضي، وأظهرت من حيث الجوهر عاملاً بشعاً من عوامل الصراع الدولي.

بروز العروبة

لقد طبقت فرنسا، كما هو معروف، في ظل نابليون الثالث سياسة الإكراه العسكري الشائعة في تلك الفترة، فأرست دولة جبل لبنان «الصغير» بأغلبية مارونية تتمتع باستقلال إداري تحت سيطرة متصرف مسيحي غير لبناني مندوب من قبل الباب العالي. لكن بانتظار تصحيح هذه الإدارة الضيقة الأفق بإعلان «دولة لبنان الكبير» من قبل الجنرال غورو في الأول من شهر أيلول سبتمبر عام 1920 م، تجدر الإشارة إلى أن الموارنة بين فترة 1860 م والحرب العالمية الأولى رفضوا الانكفاء على حرز أجدادهم الصخري أو الاعتماد في تلك الظروف الدولية على دعم صديقتهم التاريخية. لذلك يبدو لنا أن هذه الفترة تتسم بطابع هام بليغ التعبير عن علاقة الطائفة المارونية بالإسلام.

فإضافة إلى ازدهـار فريد للمؤسسات التربوية المتعددة المستويات في جبل لبنان وبيروت، عرفت الهجرة اللبنانية أولى أكبر انطلاقاتها وأحدثت في أرجاء العالم العربي، وفي مصر بخاصة، كما في فرنسا وأمريكا الشمالية والجنوبية تعبيراً مارونياً هائلاً عن العروبة. فبالتعاون المشترك مع الطوائف المسيحية الأخرى في الشرق وجميع الطوائف الإسلامية المتعطشة للتغيير، أعطى الموارنة حينئذ رؤيتهم

الخاصة لصيغة الانتماء العربي التي أثرت تأثيراً عميقاً في المشروع العام السياسي والأدبي المعروف باسم النهضة العربية. لا شك أن بعضاً من رواد العروبة الموارنة قد اعتنق البروتستانتية في إطار انتشار التبشير الأميركي، وأن آخر قد اهتدى إلى الإسلام. إلا أن مسارهم الشخصي إجمالاً ليس له أهمية متمايزة عن تلك العائدة إلى من عمل في الطائفة على إدخال اللغة اللاتينية في الطقوس الدينية، في حين أنّ الطابع الماروني لا يزال يُضفى على نتاج صنّاع العروبة هؤلاء، ويعترف بهذا الطابع الماروني جميع أفراد الطائفة باستثناء بعض من رجال الدين والمتعصبين. تجدر الإشارة هنا إلى أنه بين صدور كتاب «يقظة الأمة العربية» لنجيب عازوري عام 1905 م في باريس وبين عرض مسرحية شكري غانم «عنترة» عشية الحرب العالمية الأولى في المدينة نفسها، مروراً بالطبعة الأولى في مرسيليا عام 1908 م لكتاب بولس نجيم الشهير باسم جوبلان (Jouplain) «القضية اللبنانية»، لم يجد رواد العروبة الموارنة في هذا الأمر أي تناقضٍ مع تمسكهم باللغة والحضارة الفرنسيتين، حتى أنه يمكننا القول إن مخاض العروبة الناشئة قد حدث في فرنسا.

إرساء دولة لبنان الكبير وبروز الإسلام الشيعي

إن إرساء دولة لبنان الكبير في نهاية الحرب العالمية الثانية برعاية فرنسا كقوة انتداب يستحق أن تُخصص له دراسة تستوفي تحليل علاقة الموارنة بالإسلام عن طريق الهيمنة الفرنسية. لقد أعلنت الطائفة

المارونية بشكل صريح عدم قبولها للبنان مسيحي صغير، مثلما رفضت الانصهار ضمن مجموعة سورية كبرى على الرغم من الالتماسات الحثيثة. ولقد ترأس البطريرك الحويك وفداً وطنياً ذهب إلى باريس وكشف عن هذه المطالب اللبنانية التي أدّت إلى نتيجتين كان لهما أثر هام أيضاً على مسلمي لبنان.

لقد هيأ تأسيس دولة لبنان الظروف لبروز إسلام شيعي ظهر بشكل متأخر إلا أنه حاسم في الوقت الحاضر، كانت قد عزلته في الجنوب وفي المناطق اللبنانية الفقيرة الحملات التأديبية المملوكية ما بين نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر. إنّ إنشاء الدستور اللبناني القائم على المعايير الطائفية الدقيقة المعروفة وتأسيس المجلس الأعلى كانا المؤشرين على بروز الطائفة الشيعية في أفق مستقبل لبنان، حتى أنه يمكن القول إن مستقبل لبنان هو رهن الحركة الشيعية.

تطور الإسلام السني

إن رمت عملية بروز الإسلام الشيعي في المجموعة اللبنانية إلى تحقيق توازن محلي، فإن الإسلام السني قد اتخذ، في السياق نفسه والإطار ذاته، أشكالاً لم تكن في الحسبان منذ عدة عقود. إن إرساء «الميثاق الوطني غير المكتوب» بين مسيحيي لبنان ومسلميه، وعلى الأخص بين الطائفة المارونية والسنية، هو لا شك الحدث الأعظم، والخيار اللبناني الذي قدمه رياض الصلح للإسلام السني في فجر الاستقلال بالاتفاق مع الرئيس بشارة الخوري. لكن إن قُدر لهذا

الميثاق، كملحمة لبنان المعاصر، أن يحيا طويلاً، فهو لمّا يُدلِ كلياً حتى بتناقضاته بكل النتائج الأيديولوجية والوجودية التي سببها لكلا الطرفين.

تجدر الإشارة هنا إلى ظاهرة غريبة لكنها ذات مغزى كرس لها باسم الجسر دراسة دقيقة ضمن رسالة جامعية تم الدفاع عنها في باريس، وهي قضية الرئيس كرامي الذي ترشح لمنصب رئاسة الجمهورية المخصص تاريخياً للطائفة المارونية، علماً أن الرئيس كرامي هو ابن زعيم سني من مدينة طرابلس كان قد دخل الكيان اللبناني بتحفظ وشروط منذ قرابة أربعين عاماً. هذا التحدي السني للطائفية اللبنانية الذي لا يزال يثير سخط بعض رجال السياسة هو المؤشر الأكيد على تحوّل سني عميق من جيل لآخر. وإن بدا الأمر متناقضاً، فهو دون أدنى شك نصر ماروني كبير في إطار الطائفية البالي. في الحقيقة، لقد تبنت الطائفة السنية اللبنانية برمتها موقف عائلة الجسر، وإن لم يكن الباعث على التغيير على مستوى آمال هذه العائلة الطرابلسية الكبيرة المشهورة بعلمائها وبولائها الشديد للبطريركية المارونية التي كانت تعتبرها من أقرب المقربين إليها. لهذا لم يعترض أحد على أن يترشح الشيخ محمد الجسر لرئاسة أعلى هيئة في الدولة اللبنانية قبل حصولها على الاستقلال، أي في فترة الانتداب الفرنسي.

ولكي نسبر سبراً دقيقاً هذا التطور الحاصل لدى مختلف الطوائف الإسلامية، علينا أن نستخلص من هذه القراءة التاريخية

الخاطفة الثوابت في الوجود الماروني مقارنة بالإسلام. مما يُيسر لنا فضلاً عن ذلك تحديد رهانات هذه الثوابت على أهم الأطراف المعنية وكذلك على مستقبل العلاقات الإسلامية المسيحية.

3. نهاية عصر الأقليات

بصرف النظر عن التحولات الفكرية التي أصابت الطائفة المارونية على مر الأجيال حيال الإسلام، فإن الكنيسة المارونية تختلف عن بقية كنائس الشرق التي أُدمجت طوعاً أو كرهاً في الدولة الإسلامية. ليس غرضنا هنا إطلاقاً، كما لم يكن المقصد في العرض السابق، أن نقدم أحكاماً تقويمية، وإنما نرمي إلى تدوين بعض الملاحظات والمعاينات.

عامل فريد من عوامل المقاومة

في حين أزمع أقباط مصر على امتداد وادي النيل سلوك منهج روحي، والاكتفاء كما يبدو بالحفاظ على هويتهم الاجتماعية والثقافية، وحذت، لو أخذنا مثلاً آخر، الطائفة الأرثوذكسية الإنطاكية المتوطدة في لبنان وسوريا حذو التطور الشامل في العالم العربي بالمساهمة إيديولوجياً وقيادياً، فإن الموارنة الذين يشاركون بالتناوب في كلا الخيارين يسلكون خطاً مختلفاً زُهن ولاؤه بفكر المقاومة، كي لا نقول بفكر التمرد والعصيان.

هذا ما أثبتته العمليات العسكرية المارونية التي أشرنا إليها طوال هذا العرض، والتي أبرزت الطبع المشاكس لشعب افتخر كلُّ المراقبين

بخصاله السلمية والمضيافة التي لا تكُنّ أيّ كره لجنس بشري. ومع أن الموارنة معتادون على حمل السلاح واستعماله، فإنّ كنيستهم تميزت عن أغلبية التشكيلات الدينية الشرقية والغربية التي أضمرت مقاصد إمبراطورية بصرف النظر عن ضعف إمكانياتها. إن الكنيسة المارونية لم تكف قط عن المطالبة بهويتها، فأمضّت الجراحات جسدها.

ومما لا شك أن الماروني كان دائماً على حذر وأهبة الحرب، مما يتوجب أن يضع حداً لكثير من الإعلاميين الذين دُهشوا من دخوله ساحة المعركة عام 1975، وهو الذي قاتل، ليس « كحانوتي ملثَّم»، وإنما دون انقطاع منذ أربعة عشر قرناً، مما ينبغي أن يحدّ نوعاً ما من الفضيحة التي أثارها أولئك الذين يعتقدون أن الموارنة يعتزمون اقتسام لبنان لتسويته على مقاسهم. لكن، أياً كانت دقة المخططات التي نُسبت إليهم والشعارات الغريبة التي لُفقت لهم، فما من شك أن الموارنة لو اضطروا إلى الانفصال والمطالبة بحقهم في تقرير المصير في بلد لهم، لما كان لهيئة سياسية قد توصلت إلى الاستقلال خلال الثلاثين سنة الماضية واعترفت باستقلالها الأمم المتحدة أن تتمتّع أكثر منهم بمؤهلات الاستقلال. وحسبنا أن نشير إلى أن الموارنة قد حافظوا تدريجاً على تراث شرقي هجرته البلدان المجاورة في الفترة نفسها أو أذعنت لرفع ملكيته.

لكن إن تحققت، لا سمح الله، هذه النزعة التطرفية للانعزال لدى الموارنة في الوقت الحاضر، فإن كاتب هذه السطور يرى فيها رفضاً

بلا قيد أو شرط لحصيلة تاريخ ماروني عُرضت هنا خطوطه الأولى. في حقيقة الأمر، إن الوجود الماروني ليس مقاومة وتمرداً، وفي حالة الغضب القصوى انفصالاً بالنسبة إلى الإسلام فحسب، وإنما هو أيضاً سعي دؤوب في سبيل التضامن معه.

مواصلة حلم مشترك

لا مجال للشك في مواصلة الحلم المشترك، المرتبطة بالغرب الروماني والفرنسي الذي جاءت آخر إرسالياته إلى الشرق مسرعة، لا لتشجيع الموارنة على الانعزال وإنما لحثهم على التضامن العربي. لقد تبيّن، وذلك قبل مجيء الموفدَيْن برتولي وكوف دي مورفيل[1] بكثير، أن المساهمة المارونية في مقاصد باريس وروما لم يكن هدفها قط الهيمنة الغربية على الشرق، بل هدفت إلى توازن الغرب نفسه.

وهي فضلاً عن ذلك عملية أساسية لتوازن الشرق المسلم وازدهاره. فإن تعللت بحلم الشرق كل نفس كريمة في الغرب، فإن الحلم بالغرب لم يقتصر على الموارنة وحدهم. فالمسلمون على

(1) إشارة هنا إلى مبعوث البابا الكاردينال باولو برتولي (Paolo Bertoli) إلى لبنان في شهر تشرين الثاني نوفمبر عام 1975، ومن جهة أخرى إلى البعثة الدبلوماسية الفرنسية التي جاءت إلى لبنان في الفترة نفسها في عهد الرئيس الفرنسي ديستان الذي أطلق على هذه البعثة اسم «بعثة الصداقة». ولقد ترأس هذه البعثة آنذاك وزير الخارجية الفرنسي موريس كوف دي مورفيل (Maurice Couve de Murville). ومن جملة ما قاله المبعوث الفرنسي في تلك الفترة إن التقسيم كارثة على جميع الأطراف.

اختلاف طوائفهم تغذوا هم أيضاً بهذا الحلم وإن لم ترتق مغامرتهم دوماً، ما بين حديقة الأندلس وامتلاك العقارات في الشانزيليزيه وكاليفورنيا، مستوى التجربة الروحية التي أشار إليها السهروردي[1] بعبارة «غربة غربية». لكن، عندما يُرجع طه حسين نشأة مصر العربية إلى أصولها الفرعونية، بل وإلى الأصل الإغريقي وصرامة فلسفة ديكارت، فإن الماروني يستشعر فيها أبعاد العروبة الحقيقية ومشروعه القديم العهد. فبين غرب مقتبَس وشرق مستحدَث، تتمسك التقاليد المارونية بسعيها إلى التضامن مع الإسلام وتكرّم من بين أبنائها رواد العروبة.

المطالبة بحق الاختلاف

بالرغم من أن التقارب الماروني الإسلامي وصل إلى أعلى درجاته على صعيد الفكر والثقافة، فلقد افتقد منذ البداية إلى الثبوت، ثم تعكر كلياً عندما أضاع الإسلام بريق القرون الأولى بعد نشأته وفقد العرب سياسياً القدرة على توحيده ابتداءً من القرن العاشر.

بعد أن تم تدمير موطنهم الأم في وادي نهر العاصي نحو عام 930

(1) هو من أهم مؤسسي الفكر الفلسفي الإشراقي، قُتل في مدينة حلب عام 587 هـ. بأمر من صلاح الدين بتهمة الإلحاد والزندقة. أنظر المراجع التالية:
- «أصول الفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السهروردي» للدكتور محمد علي أبو زيان، دار النهضة العربية، 1978.

Henri Corbin : *Suhrawardi d'Alep*-

http: / /www.imezran.org /mountada /viewtopic.php?f=6&t=2914

م. اشتد ارتباط الموارنة بحرزهم اللبناني. في تلك الفترة، وبانتظار عصر العروبة الحديث، لم يكن للموارنة شركاء في الحقيقة إلا ما اتُّفق على تسميته بالإسلام المنشق، بل إسلام، فيما يخص الدروز، لا تعترف به السنة بشكل صريح.

ولأن اللقاء الماروني الإسلامي قصر عنايته على تنظيم المجتمع السياسي، فإنه أعطى للنضال الماروني المعنى الذي اعترفنا له في موضع آخر بأنه مطالبة بحق الاختلاف. لقد رأينا خلال هذا العرض أن النضال لم يكن متزامناً ومترابطاً فحسب بل كان متقارباً ومنظماً بالتعاون مع نضال آخر في سبيل الاختلاف، لكنه في تلك المرة كان اختلافاً إسلامياً.

ولكي نتحاشى كل سوء فهم، ينبغي أن نظهر فرقاً هاماً، وأن نزيل بخاصة سوء التفاهم الذي يشوّه كل تقدير لحقوق الأقليات.

في الحقيقة، هناك نوعان من الأقليات: أقلية تعرف هويتها الخاصة وتدرك بشكل حاد ما يميزها عن المجتمع المحيط بها إلى حد تختار فيه كياناً منفصلاً عنه. كانت هذه حالة الأرمن لمدة طويلة في الشرق المسيحي، وهي لا تزال إلى اليوم حالة الأكراد في الشرق المسلم. لكن، أياً كانت عرى التضامن التي تربط هذه الأقلية بالشرق المسيحي أو المسلم، فهي ترمي إلى البقاء على حالها لغوياً وسياسياً، وتعتبر كل مرحلة تُدمجها ضمن مؤسسة كنسية أو وطنية أكبر ليست إلا مرحلة عابرة.

استعداد ذاتي للعالمية لدى ثلاث أقليات

انطلاقاً من معطيات مماثلة، قد تتخذ الأغلبية في فئة ما خياراً مختلفاً قد تتجاهله عند الاختبار أو تقمعه خلال فترات معينة، إلا أن هذا الخيار يطبع أثره على منحى تاريخها. لقد بيّن سيلفان ليفي أن تردد اليهودية بين النبوية والموسوية في عشية الخيار الصهيوني[1] أدى إلى ارتمائها في أحضان خيار مغلق دون أن تفقد مع ذلك دعوتها إلى العائلة البشرية.

أرى في الشرق ثلاث طوائف أخرى يُنظر إليها على أنها أقليات، لكنها بالرغم من تقلبات الدهر والخيارات الكثيرة المضادة المطروحة أمامها، أثبتت قدرتها على الانفتاح وأظهرت بشكل دائم روح تضامنها

---

(1) إشارة هنا إلى النقاش الذي دار في منتصف القرن التاسع عشر حول خلاص الشعب اليهودي عن طريق العودة إلى أرض الميعاد وقيام دولة لهم : هل يجب أن يكون هذا المسعى من صنيعة الله عن طريق رسول مخلص يؤذن بإقامتها أم صنيعة البشر دون انتظار هذا المخلص وتأسيس دولة إسرائيل؟ انظر كتاب جورج قرم : انفجار المشرق العربي من تأميم قناة السويس إلى غزو العراق، الفصل : الدينامية الإسرائيلية المعقدة ونهضة اليهودية (ص. 631).

نجد صدى لهذا النوع من النقاش في التغيير الذي أصاب الفكر الشيعي لدى الإيرانيين قبل حدوث الثورة الإسلامية وتأسيس جمهوريتها : بما أن كل دولة في غياب دولة المهدي المنتظر هي دولة كفر وظلم، هل يبقى الشيعة في «التقية» أم يمكنهم إرساء دولة ولاية الفقيه؟ لمزيد من المعلومات، أنظر: *Expansion et déclin de l'islamisme*, Gilles Kepel, Gallimard, 2000.

الكبيرة. وليس من قبيل المصادفة إن تواجدت هذه الطوائف الثلاث في لبنان والتي لم تعزز وجودها بالمقاومة بقدر ما شددت على تضامنها العربي المسيحي أو المسلم بالطرق والأبعاد التي اصطفتها. في الحقيقة، إن هذه الطوائف الأقليات تحتضن خطة عمل ومشروع.

هذه دون شك حالة الطائفة الدرزية. فبعد إقفال الدعوة بحكم الواقع والانطواء على طائفة متباينة الأعراق، لم تتخل الطائفة الدرزية عن دعوتها التوحيدية ولا عن مشروع حضارتها الذي تُرجعه إلى عصر فيثاغورس. وهذا ما يفسر أن قائدها التاريخي في عام 1976 م هو بالفعل زعيم الحركة التقدمية اللبنانية والعربية.

وهي بالأولى حالة الشيعة التي لا تحتاج إلى براهين لتثبت أنها لم تنشأ ولم تستمر ولم تذق العذاب في الإسلام من أجل أبناء طائفتها وإنما من أجل أمة محمد برمتها.

وأظن أنه أخيراً مغزى التاريخ الماروني في ضمن نطاق تسلسله الضيق، وبالتناغم العميق مع التاريخ الإسلامي، وعلى طول مراحله ومحنه. لقد غذى هذا التاريخ تجاه الإسلام مطالب ليس لمصلحة الطائفة المارونية فحسب وإنما لمصلحة كل من يرفض من مسلم ومسيحي وضعاً أياً كان نوعه، باعتباره فُرض عليه.

غروب عصر الذمة

إن النضال الماروني في سبيل الاختلاف الذي أحدث، شئنا أم أبينا، الوطن اللبناني دون أن يفصله عن الأمة العربية، يعلن أنه أنهى

عقد الذمة أو «حماية أهل الكتاب» في دار الإسلام. لقد كان عقد الذمة أول خطوة وأول تقدم مهم في التاريخ على طريق التعددية الاجتماعية، إذ إن الإسلام في تسامحه الكريم كان طليعة المجتمعات الدولية ولا يزال أوسعها إلى يومنا هذا. لكن صفحة من التاريخ قد طُويت بشكل نهائي بالنسبة إلى الموارنة وغيرهم، والعودة إلى العصور الوسطى، حتى لو كانت عصوراً ذهبية، مستبعدة، وهذا ما ردده في كل حال الكثيرون، وناضل الموارنة لنيله.

إن كاتب هذه السطور يرغب، بالإضافة نيابة عن نفسه، أنه عندما يُلغي المسيحيون والمسلمون معاً عقد الذمة أو ما يعادله حالياً من تساهل ديني إزاء الأقليات، فإن الماروني يعتزم الدفاع بشكل أفضل عن قضية وحدة الإسلام والنفوذ بذلك إلى ضمير الرسول؛ بل إنه، عندما يُسقط كل جدران الفصل المتعارف عليها داخل الأمة العربية، لا ينشد نزع كل احتمال تبرير للدولة اليهودية فحسب، وإنما يريد كذلك استعادة المجتمع المتعدد الحقيقي الذي أرساه الرسول في المدينة المنورة، والولوج، عن طريق العروبة، إلى قلب الدعوة الإسلامية ليبلغ من خلالها كمال دعوته الخاصة والطمأنينة.

الانتقال من العروبة إلى العُرْبة[1]

لكن هذا ميدان آخر مدعاة للتأمل. تجدر الإشارة، فيما يتعلق

---

(1) في كتاباته باللغة الفرنسية، يستخدم الأب يواكيم مصطلحاً جديداً هو «العُرْبة»، وذلك للتفريق بين العروبة التي تعني القومية السياسية الوحدوية، كما سنرى في السطور التالية، وبين العُرْبة التي تفيد الانتماء الثقافي.

بحديث الساعة وأثره في الوضع الجاري، إلى أن الموارنة قد طرحوا على أصدقائهم المسلمين مسألة تضع الطرفيْن في حالة حيرة موجعة. إنني أعتبر أن خط القوة في التاريخ الماروني جزء من خطوط القوة التي تحتّم في الوقت الحاضر تغييراً جذرياً على الوحدة العربية التي تمتّ صياغتها في القرن التاسع عشر، واستمرت في القرن العشرين برعاية جمال عبد الناصر. علاوة على ذلك، يتحتم علينا أن نخرج سوياً من المأزق والاضطراب السائديْن بعد لحظة النشوة التي عرفناها في رمضان في شهر تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1973 م على أثر عبور القوات المصرية قناة السويس، ومن ثم الاغتيال المأسوي للملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود. وهذا ما أسميه بالانتقال من العروبة إلى العُربة. فمن مجموعة تعتبر لغة فئة ما وثقافتها ودينها وعقيدتها على أنها حتماً الممتلك الأكبر والعام إلى جانب ممتلكات أخرى وقيم مقبولة ومسموح بها، بل يشجع على وجودها لكنها تبقى خاصة، ننتقل إلى وحدة تغلب عليها الإرادة السياسية وحدها في العيش المشترك. وطبقاً للقيم التي حظي الإسلام بتعميمها، يتحتم على الالتقاء أن يشخصن كل طرف حسب هويته الخاصة، وإن اقتضى الأمر وفق كيان سياسي متميز يُدرَج ضمن الوحدة.

أعتقد أن هذا المفهوم للوحدة العربية يقترب من مفهوم الوحدة في أوروبا كما كان يراها الزعيم الفرنسي شارل دي غول؛ ومما لا شك فيه أن الحوار العربي الأوروبي لا يمكنه بعد اليوم أن يتغاضى عن

تداخل هذين النوعين من البحث عن الوحدة ضمن مسؤولية متبادلة. ومما لا شك فيه كذلك أن التعددية والعلمانية اللتين تنادي بهما الأمة العربية الجديدة تختلفان عن النماذج الغربية العصرية بقدر ما تختلفان عن الحكومات الدينية الشرقية الغابرة والحاضرة.

موارنة وفلسطينيون ومجتمع جديد

وهذا ما يجعل أخيراً النضال الماروني داخل الإسلام، وإن أظهرت فيه الأحداث الحالية تناقضاً كبيراً، يتعارض مع الخيار الإسرائيلي بقدر ما يقترب من النضال الفلسطيني. وهنا تكمن حالياً المأساة الحقيقية. نضالان من أجل الاختلاف، يلتقيان في مشروع تأسيس مجتمع جديد متعدد ضمن الوحدة، يتجاهل كل منهما الآخر أو يتقاتلان ويقتلان بعضهما بعضاً. وحسبي كدليل أن أبدي خوفي من رؤية الحلم الفلسطيني يتلاشى عندما نشهد تفكك لبنان. فمن الحلم الماروني في دولة لبنان إلى الحلم الفلسطيني في المقاومة، هناك حقاً علاقة النموذج الأولي بالمثال. لقد ساهم الموارنة في صنع النموذج الأولي اللبناني للعالم العربي بمجمله كتجربة مثالية للعيش المشترك، وذلك بالاتفاق مع قوى أخرى من داخل العالم الإسلامي أو من خارجه تعارض جميعها، دون استثناء، المفهوم الصهيوني. وفي هذا السياق كان الأمل في أن تتخطى الأرض المقدسة هذا النموذج الأولي التجريبي لتؤسسه وتطوره. وإني أعتقد، وهما يقتلان بعضهما بعضاً، أن خلاص الأرض المقدسة ولبنان لا يمكن أن يتحقق إلا بهما سوياً.

خاتمة

اختيار ماروني بين رؤيتين مسيحيتين للإسلام

إن التاريخ الماروني، كمسار لكنيسة وشعب ساهما بعمق في النمط الإسلامي للعيش الجماعي، يمثل أعظم استمرار للشرق العربي. هكذا يراه كمال صليبي، الأستاذ في الجامعة الأميركية في بيروت. وكشاهد على هذا التاريخ ومسؤول عن قاعدته الشعبية، تمثل البطريركية المارونية أقدم مؤسسة من هذا النوع استمرت على حالها دون انقطاع أو ضعف من القرن السابع إلى يومنا هذا. يقارن كمال صليبي البطريركية المارونية بالإمامة الزيدية في اليمن و«بإمارات المؤمنين» المتفرقة في الجزيرة العربية وغيرها من المناطق الأخرى. وهي إن تراجعت أمام غيرها لاتساع مساحتها وأهميتها السكانية، فإن البطريركية المارونية، كما يلاحظ صليبي، تتجاوزها كلها ليس من حيث متوسط الأعمار فحسب وإنما خصوصاً من حيث تعقد الأوضاع التي عاشتها وجسامة المحن التي كابدتها والرهان الدولي المتعاظم الذي يثيره وجودها على الضفاف الشرقية ذات القيمة الاستراتيجية العالية للبحر الأبيض المتوسط. ومع مراعاة الأحجام النسبية بين الوضعيْن، فإنَّ لا نظير للبطريركية المارونية في الشرق العربي المسلم إلا البابوية في الغرب.

ولكي لا نختم هذه النظرة الإسلامية المسيحية الشاملة على مستوى الموارنة باعتبارات سياسية محضة، أقول إنه في ختام تاريخ عاشه الموارنة مع المسلمين منذ ولادتهما التوأمية، ينقسم الموارنة في موقفهم من الإسلام انقساماً متفاوتاً جداً بين نظرتين معاصرتين متأثّرتيْن بالمقاومات الفرنسية. هما نظرة لويس ماسينيون[1] والأب اليسوعي البلجيكي المتعاطف كلياً مع قضية الوجود الفرنسي في الشرق، وهو الأب هنري لامنس.

لا ريب في أن الموارنة يصطفون بمجملهم خلف موقف الحاجز النقدي الذي نصبه هنري لامنس أمام الإسلام. لذلك فإنه عندما تتبنى نتاجه النخبة المثقفة المارونية، كما تتبناه أوساط عديدة من الشرق المسيحي والغرب المستشرق، فهي ترسّخ نفاذ آباء رهبانية اليسوعيين الأوروبيين الموفدين إلى الشرق وبصورة خاصة إلى الطائفة المارونية، في حين أن جيل اليسوعيين الذي خلف لامنس تشرَّق تشرقاً عميقاً ممّا غيّر على ما يبدو وجهة نظر الآباء في تلك الأثناء. وخير دلالة على النظرة السابقة هو أن العمل الماروني الوحيد ذا قيمة تجاه الإسلام هو ترجمة لكتاب مختصر كتبه باللغة اللاتينية رئيس عام آباء اليسوعيين،

(1) لأخذ صورة ملخصة عن نظرة ماسينيون، أنظر :

P. Rocalve, Louis Massignon et l'Islam. Place et rôle de l'Islam et de l'islamologie dans la vie et l'œuvre de Louis Massignon, Institut français de Damas, Coll. «Témoignages et documents», n°2, Damas, 1993, p208.

الأب ثيرزوس غونزاليس دي سانتالله، وهو كتاب يشيد بالإسلام.

يبقى أن الفضل يعود إلى الموارنة في انتشار إسلاميات ماسينيون في الشرق والغرب على السواء، وفي تعميمها في الكنيسة كتغيير جذري لنظرتها إلى الإسلام، انطلاقاً من رد الاعتبار للنبي العربي. وهذا صحيح لدرجة أن بعض الإسلاميات الكاثوليكية لا تزال تسير في تفكيرها على خطى لامنس وهي تدّعي الانتساب إلى ماسينيون.

ومع هذا، فالأمر ليس متناقضاً كما يبدو في الظاهر عندما يخطر في بالنا أن لامنس وماسينيون تقاسما تجاه الإسلام الذي ذمه الأول وأعلى شأنه الآخر عشقين كبيرين هما عشق اللغة العربية الذي برز بحدة لدى ماسينيون، وعشق بلاد الشام الذي طُبع بالحنين إلى حد الشغف لدى لامنس.

فبين هذين العشقين المشتركين، لا مفر للموارنة من إجراء تحول حاسم. فيما يتعلق باللغة العربية، فالتحول قد حصل كما رأينا ومنذ زمن طويل. لكن، لكي نتحقق من عمقه في يومنا هذا، أقول: إن ما من أحد أحب اللغة العربية في هذا القرن أكثر من شخصيتين مارونيتين عريقتين، أحدهما الأب أناستاس دي سان إيليا[1] الذي كان راهباً كرملياً في بغداد، والآخر خليل رامز سركيس الذي كان قسيساً في بيروت.

أما فيما يتعلق بالشغف ببلاد الشام الذي يجد أرومته العميقة في

(1) المعروف باسم الأب أناستاس ماري الكرملي.

عشق العُربة، فإنه، بصرف النظر عن كل صياغة سياسية، يمثل أعظم ضرورة مسكونية ملحة ترهق كاهل الموارنة. إذ يتوجب عليهم إعادة الوحدة إلى النطاق البطريركي الإنطاكي والمصالحة مع إخوانهم أبناء الطائفة الأرثوذكسية، كما لو وجب محو أربعة عشر قرناً من التاريخ، ليشحذوا سوياً هذا السيف ذا الحدين القادر وحده على قطع العقدة الغوردية[1]، عقدة انتمائهما الروماني المستعار، وإقحام شغف الوحدة إلى صلب الكنيسة.

لكنّ اقتضاء الوحدة لا يرهق كاهل مسيحيي بلاد الشام فقط. فإن لم يكن لبنان في نظر لامنس سوى حصن الحريات السورية العرين، فما من شك أن المجموعة السورية اللبنانية تشكل ما بين البحر والصحراء العربية نقطة مؤثرة يتوارد إليها كل انبثاق إسلامي على موعد مع الحرية. أعتبر أن المصالحة المسكونية بين المسيحيين أنفسهم لن تتم دون مصالحة المسلمين ضمن هذه المجموعة بكل ألقابهم وفئاتهم مع الحرية.

باريس، حزيران/ يونيو 1976

(1) هي «عقدة معقدة للغاية كانت تربط المقرن إلى مجرّ عجلة غورديوم (الملك الأسطوري لفريجيا) المحفوظة في زمان زوث في غورديوم. عندما لم يستطع الإسكندر الكبير حلها قطعها بضربة سيف. مجازاً: صعوبة مشكلة حلها شبه متعذر». أنظر المنجد في اللغة العربية المعاصرة، 2008.

الطائفة المارونية ودورها التاريخي المعقد
نص تمهيدي للخماسية المارونية[1]

إن التاريخ الماروني محبوك بالأسئلة التي لن تلقى جواباً في هذا النص، لكن بعضها سيطرح على بساط البحث.

فالقضايا المطروحة في هذه المجموعة والمتعلقة بالتاريخ الماروني تم طرحها اعتماداً على وثائق قديمة. ليس لهذه الوثائق قيمة علمية إلا لما ندر منها، لكنها بوجه عام أعمال وجدانية صادقة.

تُناقَش المسائل التي يطرحها علم التاريخ بخصوص الموارنة في ملحق المصادر والمراجع المُقبل، وهو على مستوى المجموعة المقدمة اليوم. وفي قسم بعنوان « أبحاث راهنة»، نتناول، إن شاء الله، مسألة الأشخاص الذين عاصروا عموماً فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى، والذين تغفل دوماً عن ذكرهم مجموعة النصوص القديمة التي بين أيدينا. نحاول حينئذٍ تفسير المسائل التي يثيرها هؤلاء الأشخاص

(1) **خماسية مارونية**، المجلد الأول، الجزء الأول، ص. 21 إلى ص. 31.

سواء في مجال التاريخ أو القانون أو الطقوس الدينية أو في مجال علم الموسيقى.

من جهة أخرى، من المفروض أن يسد ملحق المصادر والمراجع المذكور الثغرات الكبرى التي تُفسد جمال هذه المجموعة بالرغم من أبعادها الهامة نسبياً. لذلك من المفروض أن يعرّف الملحق برجال الطائفة المارونية ونسائها الذين لحقوا فئة الأدباء منذ القرون الوسطى الأولى. لن يُذكروا هؤلاء في هذا النص إلا بشكل استثنائي، ليُتاح المجال للتعريف بأولئك الذين ساهموا، بطريقة غير كتابية، في تأسيس الكنيسة المارونية وطائفتها.

من المفروض كذلك أن يُرفق هذا الملحق بمجلد ضمائم وتعديلات. فيما يتعلق بالضمائم، إن الخيار ضخم يحار أمامه الكاتب. لكن عندما يتيسر له أن يجمع كل الملاحظات النقدية التي يأمل أن يرسلها له قراؤه ومراسلوه المخلصون، يحتفظ بما يستحق أن يُحتفظ به، ويقوم، إن أطال الله بعمره، بالتعديلات والإيضاحات اللازمة. فليشكر سلفاً كل من سيساهم في الملحقات الآتية للخماسية الإنطاكية/ أبعاد مارونية.

لم يخف عن أحد، منذ البداية، أن الكاتب قد ألّف موضوع هذه المجموعة بحرية تتناسب مع كل عمل مستقل، بل إنه ثمرة مبادرة شخصية وأبحاث خاصة لم تخضع لطلب أو توصية. لذلك لم ينتظر الكاتب عناء أن يجيب على كل من قدّم طلباً أو اعتراضاً ليضع نتائج أبحاثه بين يديه.

لا تدّعي هذه المجموعة الموسوعية العلمية. فهي عبارة عن مختارات تضم وثائق منتقاة بحرية تامة ودون تعمد، جُمعت في خمسة أجزاء، من هنا يأتي عنوانها الخماسية[1]. وهي تتلو مجموعة أخرى، الخماسية الإسلامية المسيحية تشابهها في خطها البياني وترمي، في زمن وضعت فيه الرسالة الإنسانية والوعي بالذات على المحك الشاق، إلى المساهمة في بناء الوعي بالذات الذي تمثّله الموارنة في

---

(1) أودّ أن أشير في هذه المناسبة إلى الفرق الكبير بين مجموعتي والوثائق الدبلوماسية والقنصلية، المتعلقة بلبنان، والتي باشر بنشرها صديقي السفير عادل إسماعيل، وهي عملية ضخمة وضرورة أصبحت ملحة. لكن إن أُخذ عليه عدم نشر النصوص بكاملها، وهو مأخذ يقتضي أن نقيم الدليل عليه، فإني، على ما أظن، في مأمن من الانتقاد الذي قد يلحق بي بسبب الحذف الذي قمت به في بعض النصوص. لقد أشرت دائماً إلى هذا الحذف بعلامات وقف وضعتها داخل معقوفين. وإن بدا لي أن الحذف قد يعيب النص، استبعدت النص برمته لأن لا شيء يضطرني إلى التمسك به، حيث إن النصوص قد سبق نشرها في أغلب الأحوال لكنها صعبة المنال. ومن يحرص على معرفة ما حذفت، فلينظر في النصوص، كما فعلت أنا. أما فيما يتعلق بالمخطوطات غير المنشورة والتي قمت بترجمتها، فإن الحذف لم يتجاوز الأسطر القليلة في كل المجموعة ولم يؤثر في جوهر النص، وهي تمثل عبارات أو جملاً استعصت على تحرياتي. فيما يتعلق [بالحذف] الخاص بهندية وبالبطريرك يوحنا اللحفدي وكمال جنبلاط، فإن المقاطع المحذوفة هي في أغلب الأحوال حشو وتطويل أو مليئة بالحذلقة. وأخيراً، أقول في نهاية هذه المقدمة لمَ، وأنا المتخرج على يدي ليون بلوى ولويس ماسينيون، لم أحذف أو أعلق على المقاطع التي تظهر فيها الأخطاء التاريخية بوضوح.

مخيلتهم، وإلى تقوية رسالتهم التي نادوا بها في الكنيسة والعالم منذ العصور الحديثة. انطلاقاً من تلك الفترة انشغل الموارنة بإحياء تراثهم وجمعه وإظهاره على ضوء المناهج وبفضل الوسائل التي اكتسبوها في أوروبا.

أنتمي إلى جيل الموارنة الأخير الذي تلقى تعليمه الأساسي في الشرق لكنه أنهاه في أوروبا واستقر فيها. حاولت أن أعيد صدى صادقاً قدر الإمكان ليس للعلم بل للفكرة التي ارتسمها أسلافي ما بين روما وباريس لنقاط ثلاث بالغة الأهمية، حيث إنهم لم يفعلوا ما فعلوا، مهما قيل عنهم، خدمة للبابوية أو لفرنسا أو حتى للعلم. فبمساعدة أفضل العقول الكاثوليكية النيّرة في فرنسا وفي أوروبا، اجتهد هؤلاء الموارنة المثقفون بإصرار وحماس أثار أحياناً السخط، إلا لدى من أدرك أهمية الرهان، في المقاصد الثلاثة التالية :

1. الدفاع عن كمال كنيسة الله الموجودة في أنطاكيا وسائر المشرق وعن كاثوليكيتها ووحدتها.

2. تشجيع حرية شعوب المشرق بإعطائها حصناً منيعاً في لبنان.

3. إلقاء الضوء، بعيداً عن كل استيعاب حزبي أو أيديولوجي أو لغوي، على التراث المشترك للحضارة التي ازدهرت حول حوض البحر الأبيض المتوسط.

تلك هي المقاصد الثلاثة، مسكونية وسياسية وثقافية، للخماسية الإنطاكية/ أبعاد مارونية والتي تتطابق مع المقاصد الثلاثة للطبقة

المثقفة المارونية منذ القرن الخامس عشر. وإني سأسعى فيما يلي هذه المقدمة إلى توضيح الأمر بشكل أكبر. فليتفضل القارئ بقبول الدوافع الخاصة لهذه المجموعة في زمن البؤس الذي نعيشه.

دوافع خاصة

لقد جاءتني فكرة هذه الخماسية الجديدة وأنا قرب أبناء وبنات إخوتي من الشتات اللبناني، أو حتى قرب أولئك من بين الشبان الذين ولدوا في لبنان وأصبحوا في أميركا أو استراليا غرباء عن عمهم وعن جدتهم. لم أشأ معارضة تطورهم الطبيعي أو منعهم من أن يصبحوا ما هم عليه هنالك حيث استقروا بأمل العودة أم لا، أي مواطنين بشكل تام ومسيحيين ملتزمين كل الالتزام بكنيسة بلدهم المختار، وليسوا لبنانيين مزيفين أو موارنة بسعر خفيض. أقول في اتجاه التطور الطبيعي والضروري لأنه يناقض الولاء المزدوج ذا الطابع الصهيوني، ظننت أني أستطيع مساعدتهم في أن يتأهلوا إلى خدمة مثلى للأوطان والكنائس التي أصبحت اليوم جزءاً منهم. بإهدائهم دلالة عن تراثهم القادر أن يستوعبه أولئك الذين تلقوا تعليماً جامعياً، ظننت أن تراث أجدادهم السياسي والثقافي والكنسي يمكنه، إن شاؤوا ذلك، أن يضفي قيمة على مساهمتهم في الصيرورة السياسية والثقافية والكنسية التي هي الآن خاصتهم. لهذا من البديهي أن هذه المساهمة يمكنها أن تطمح إلى نتيجة مزدوجة وأنها، بمنأى عن أن تُفقد المعنيين بالأمر تعلقهم بأصولهم أو أن ترسخهم في غياب رفاهية الولاء المزدوج، قادرة

على أن ترسي بين أصولهم ومستقبلهم صلة وصل مبدعة لاختلاط الأجناس.

كان هذا حديثي عندما اندلعت الحرب في لبنان واتخذت أبعاد الكارثة التي نعرفها، ورأيت في وسائل الإعلام كيف حثّت مساهمة الموارنة في هذه الحرب على تدفق الآراء الاعتباطية، حين لم يكن يشوبها جهراً الاحتقار والافتراء. حينئذ ظهر غرض جديد للخماسية ضاعف غرضها الأول وتجاوزه نوعاً ما. هل يجب أن أتأسف لهذا؟ ليس بوسعي إلا أن أدوّن الأمر وأعترف أن إعداد مجموعتي الموجهة للشتات اتخذ دوراً أكثر دقة بالنسبة إلى الحرب. لم يكن القصد الرد على المفترين، بل إظهار تراث المقاومة بالتضامن. وبهدف التصدي لاقتراحات الوفاق المصغّرة والمسوّية بسعر رخيص، جاءت المطالبة باللقاء المتمسك «بحق الاختلاف» واتحاده الشخصاني. كان يجب قبل كل شيء آخر إظهار أن البحث المتحمس عن الهوية المارونية ما تحقق يوماً إلا في ظل اللقاء والاعتراف بالآخر، وأن اليوم الذي يفقد فيه الموارنة دور الوسيط بين الديانات والحضارات والشعوب، يفقدون، بالإضافة لأفضل سمة من تراثهم، سر وجودهم.

جمعتُ من هذا التراث إذاً، بعض أشكاله ومظاهره بكل تنوعها، وذلك دون أن أخضعه لأفكار معدَّة سلفاً لكنه معروض لقراءة بثلاثة مستويات، كما سأوضحه فيما بعد. إلا أن الحرب قد عجلت المقصد الشخصي الذي ارتسمته، وقد حملتني صنيعة زمن الحرب على أن

أنظر إلى الزمن الماروني بحدة تليق ليس بروائع العلم وإنما بالأعمال النضالية. لهذا عليّ أن أقول كيف أثر هذا الوضع في كتابة هذا العمل ونشره. فإليكم كيف طبع الوضع أثره على محتوى الكتاب.

التاريخ الماروني بمستوياته الثلاثة

إن التقديم الإجمالي الذي أقترحه على القارئ ليس تلخيصاً لهذه المجموعة ولا مفتاحاً يفتح كل أبوابها. إنه بالأحرى إضاءة تعكس قراءتي الشخصية والأغراض التي أسلم بها بعمق، ولاسيما أن مقاصدي الشخصية تتطابق مع المشروع الماروني الذي يمتد على مدى القرون.

1. جرت العادة أن نتهم الموارنة بسعيهم في «عودة مسيحيي المشرق إلى الوحدة الرومانية» من خلال إسهامهم في إنشاء كنائس متحدة. في الواقع، لا يزال هناك موارنة من جيل أساتذتي لا بل من جيلي يتباهون بهذا الدور دون أن ينفكوا عن المطالبة «بأرثوذوكسيتهم المستمرة» وارتباطهم المطلق بكرسي بطرس المقدس في الألفية الأولى والثانية على السواء.

لن أسيء إلى أصدقائي الموحدين فأعتبر هذا الأمر الملهِم الأساسي لمجموعتي في مقصدها المسكوني. إلا أني لن أجنبهم كما لن أجنب نفسي عناء تتبع هذا المسلك الفكري بطابعه الماروني، ولأنه يستحيل إعادة صياغة التاريخ بالأفكار، حتى وإن كانت نبيلة جداً، وإنما

نتلقاه كما صنعه البشر، لن أجنبهم عناء النظر إلى هذا المسلك الفكري كما جرى، والسعي إلى فهمه لكي تثمر في خلاصة الأمر أشجاره.

من المؤكد أن «مسكونية» أسلافي تختلف عن مسكونية اليوم. ومع هذا فإنه بفضل تلك المسكونية استطاع الشرق الشامي أن ينفض عنه دثار خموله العثماني، وأن مشكلة الوحدة المسيحية الإنطاكية لم تعد، شئنا أم أبينا، تُحسم بين الكنيسة اللاتينية والكنيسة البيزنطية، وإنما داخل الكنيسة الإنطاكية، أي بين الكنيسة الملكية الأرثوذوكسية والكنيسة المارونية بشكل رئيسي، لأن الأولى اعتنقت جزئياً الطقوس اللاتينية، في حين أن الأخرى أصبحت بيزنطية كلياً. لكن لا هذه ولا تلك فقدت هويتها المشتركة داخل الشرق الشامي ولا حتى مصيرها المشترك مع الأخرى. لكنهما لن تلتقيا مسكونياً بالتصالح بين كنيستين إمبراطوريتين حتى وإن تم الاعتراف بهما كأخوات، بل تلتقيان بالوجود المشترك داخل الكنيسة الواحدة كمطالبة بالوحدة وطلائع لها.

هل من داعٍ أن أقول: إن المسكونية التي أسميها «إنطاكية» أو مسكونية «الشرق الشامي» والتي من خلالها أنوي التقرّب من وجهة نظر الأب جان كوربون والتعاضد مع فكرة إنشاء «مجمع إنطاكي» التي اقترحها غبطة البطريرك إينياس حازم الرابع، ليست أكثر انسجاماً مع المسكونية الحالية منها مع مسكونية الموارنة التقليديين ؟ لكني لن أسترسل أكثر في هذا الحديث، كي لا أخرج عن الموضوع المطروح في نصوص هذه المجموعة. كان لا بد من أن أشير إلى ذلك لأبيّن

أن مشروع وحدة الكنائس الذي خدمه الموارنة منذ حركة الإصلاح المضاد الكاثوليكية [أو الصحوة الكاثوليكية]، إن أكل الدهر عليه وشرب، فهو لم يكفّ عن رفض المسكونية السائدة في الوقت الحالي.

أذكّر في هذا الصدد أن الخماسية الإنطاكية/ أبعاد مارونية تستعيد وتوسع مؤلَفاً ظهر بعنوان إنطاكيات، تم تصميمه وإنجازه في إطار مجمع الفاتيكان الثاني، ويمكن النظر إلى هذه الخماسيات على أنها إنطاكيات مكررة، أي تهدف إلى الدفاع عن اللقاء بين الكنائس وعن وحدتها ضمن الكنيسة، وهو دفاع يختلف عن مشروع آخر للتصالح بين الكنائس. يوصي هذا المشروع الآخر بشكل خاص بمصالحة كنيسة الشرق مع كنيسة الغرب، اعتماداً على أن الشرق يدعي امتيازات غير قابلة للتصرف تجاه كنيسة روما، وعلى أنه لم يتبق للموحدين سوى الالتحاق بالأرثوذوكسية.

وإن لم يخدم مثل هذا المشروع، فإن مشروع الموارنة القدماء كان له أقلّه الفضل بإظهار نوع من الماضوية لدى من يعملون اليوم لتأمين تصالح الكنائس وهم يعودون بالتالي إلى العهد العظيم لمدينتي ليون (Lyon) وفلورنسا (Florence)، مع هذا فإنّ كرسي روما المقدس هو الذي يقدم اليوم كل التنازلات.

لكن لله الشكر، إذ إن للإنطاكيين خيراً من هذا يشغلهم وعرضاً أفضل يقدمونه. وبصرف النظر عن كل نقاش، فإن هذه المجموعة تصب، ليس في الجدال بين الكنائس، بل في حضن الكنيسة وفي

جزء من كنزها الأكثر عزة وقيمة : صلاتها الكنسية والإفخارستية. إن الجزءين الثالث والخامس من هذه الخماسية مكرسان كلياً لها، ويمكن اعتبارهما نوعاً من الالتقاء الإنساني مع الروح القدس. لهذا فإن الغرض المسكوني حصراً لهذه المجموعة هو أن يوصل الصلاة الإنطاكية في ألفها الأول ببساطتها وحرارتها الأولى، المستقلة عن الكنيسة اللاتينية والبيزنطية والمقدمة بثقة واطمئنان إلى كلّ مؤمن. هذه الصلاة القائمة على التمجيد وتسبيح الاسم المقدس بتكراره ثلاث مرات، على التراتيل والمزامير والتضرع، هذه الصلاة التي تبلغ أوجها في التكرار الإفخارستي، تمثل العبارة المتفق عليها بالإجماع لإيماننا وطقوسنا عندما كانت أنطاكيا، على الرغم من البدع والانشقاقات، واحدة مع الكنيسة برمتها.

2. لقد أُخذ كذلك على الموارنة مساهمتهم، في زمن الصليبيين وبخاصة منذ القرن الخامس عشر، في المشروع التدخلي الأوروبي وخصوصاً الفرنسي في الشرق، وتهيئتهم له جسراً سمح للبعض بالحديث في القرن التاسع عشر عن «فرنسا المارونية».

لقد استحوذ هذا الموضوع على صفحات عديدة من الخماسية. يمكنني في الواقع أن أنصح القارئ الذي يتناول موضوع الموارنة للمرة الأولى أن يبتدئ بما قاله الفرنسيون عن هذا الأمر، وألفت عنايته بشكل خاص إلى الجزء الأول، القسم الثاني، من كتاب جان دي روك في عهد لويس الرابع عشر ؛ ثم في المختارات الموجودة في القسم السابع

من الجزء نفسه أشرت إلى ما كتبه لامارتين وبوجولات (Poujoulat) بعد عام 1860، وما كتبه باريس (Barrès) قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها.

أما في الموضوع الخاص بالعلاقات بين الموارنة وفرنسا، فإني أحيل القارئ بشكل خاص إلى التقرير الذي وجهه السفير سفري دي بريف (Savary de Brèves) إلى لويس الثالث عشر، حيث نرى فيه أن سياسة فرنسا في الشرق، والتي عُرضت في هذا التقرير بأهمية وصراحة لا مثيل لهما، هي سياسة إسلامية، وأن مسيحيي الشرق، وعلى رأسهم الموارنة، خاضعون لهذه السياسة. فليس هناك من سياسة فرنسية خاصة بمسيحيي الشرق تحدد طبيعة علاقة فرنسا بالباب العالي، بل هو العكس تماماً.

فمع سياسة كهذه بالذات قام الموارنة بأعمالهم، ومع هذه السياسة أنجزوا وصادقوا في القرن العشرين على ما كان يمكن تحقيقه وتكريسه منذ عهد هنري الرابع، على الرغم من نيّات هذا ومصالح أو خيانة ذاك. إلا أن الموارنة لم يجهدوا في ذلك العصر في سبيل ملك فرنسا ونافار، وإنما لحساب الأمير فخر الدين بالتعاون مع دوق منطقة التوسكانا في إيطاليا. بفضل العون العسكري والاقتصادي والثقافي الأوروبي في عصر النهضة تغلبت الإمارة المعروفة بالدرزية على السلطنة العثمانية وتمكنت من إرساء الاستقلال الذاتي «اللبناني» من أنطاكيا إلى القدس.

نعلم ما آلت إليه الإمارة وكيف أُغرق المشروع في دم الأمير وفي مياه البوسفور. فما بين التاريخ وأسطورة تزيد على التاريخ بلاغة وتعبيراً في قلب روادها، تبين هذه الواقعة ثابتة النضال السياسي لدى الموارنة. فالماروني أسير لشريك غير مسيحي، وهو لم يرتبط بأوروبا إلا ليرسخ في الشرق استقلالاً ذاتياً ليس مارونياً وإنما وطنيّ. بل إنه مشروع الاستقلال الذاتي الأول الذي عرفه الشرق في العصور الحديثة. كان لا بد من الانتظار قرنين من الزمن ومن ضربة بونابرت العنيفة لكي تستيقظ مصر الخديوية وتتمرد. لكن في كلتا الحالتين هو النضال نفسه، وهو الذي انتصر على السلطنة العثمانية : ترسيخ استقلال الدولة الأمة في إطار الوحدة والتضامن العربي ضد كل سلطة بطابع خلافي أو سلطاني.

وقبل أن أظهر، وهو الغرض الثالث لهذه الخماسية، فيمَ يتطابق هذا المشروع السياسي الذي ناضل لأجله الموارنة قبل أي إنسان آخر مع مشروع ثقافي، وكيف أن انتماءهم اللبناني هو حجر العروبة الأساسي، هل يمكنني أن أنوه إلى أن موضوع هذه المجموعة قد وجد في الحرب غاية محددة؟ ففي صراع الكتل الذي ناب في الشرق العربي عن لعبة القوى العظمى والباب العالي، تتقيد هذه المجموعة المكتوبة باللغة الفرنسية بالمشروع الماروني كأداة اتصال تاريخي وتقوم به لتخالف إرادة واضحة في الهيمنة، تلك التي تنوي كسر محور بيروت – باريس وإتباع لبنان للمدار الإنكليزي السكسوني.

وزيادة للتوضيح، تنوي هذه المجموعة إظهار فيمَ تخالف التقاليد المارونية، الشديدة التأييد للحكم الذاتي والتي لا يقل جهدها في نصرة الشعب اللبناني وشعوب الشرق، المشروع الصهيوني في شكله المتفاقم منذ إعلان دولة إسرائيل. في الوقت نفسه، يلتقي هذا المشروع مع أخيار رجال الدين والمثقفين والمناضلين اليهود الذين كانوا حتى عام 1948 وبعده إلى جانب مارتين بوبر (Martin Buber) ومؤسس الجامعة العبرية جوده ماني (Judah Magnes) يريدون معايشة فعالة بفائدة متبادلة بين اليهود والمسيحيين والمسلمين في فلسطين على غرار التعايش المسلم المسيحي في لبنان.

لهذا، ليس هناك أي تناقض بل استمرارية منطقية وترويج حار للمشروع نفسه عندما يدافع بعض الموارنة عن السلام بإنصاف الفلسطينيين في وطنهم. لا بل إن من أخذ على عاتقه هذا الملف هم مشاهير الموارنة، ابتداءً من نجيب عازوري الذي كان أول من وضع القضية الفلسطينية في قلب «نهضة الأمة العربية»، وانتهاءً بسليمان فرنجية، الرئيس العربي الوحيد الذي حمل القضية الفلسطينية إلى منصة الأمم المتحدة.

3. قد نرى أن مشروع الموارنة السياسي وهدفهم المسكوني فشلا جزئياً نظراً إلى أن وحدة أنطاكيا المسيحية كنواة لوحدة الكنيسة العالمية لا تزال في مستوى الأمنية فحسب، بل لقد أصبح مشروع الدول – الأمم المتعددة الديمقراطية والمتعايشة في حضن الوحدة

العربية موضوع سخرية وعبث في لبنان وفلسطين ومن «الخليج إلى المحيط».

لكن الحال يختلف بالنسبة إلى المشروع الثقافي، الوجه الثالث والرئيسي للمسعى الماروني بين الشرق وأوروبا. وإني أعتقد أن الموارنة قد نجحوا تماماً في هذا الغرض، أقلّه لغاية الحوادث الطارئة الأخيرة والخطيرة إن صحت العبارة. ويمكننا القول بطريقة أو بأخرى إن الشرق برمته أصبح من الناحية الثقافية مارونياً حيث إنه تبنى الموقف الفكري والحي الذي كان الموارنة أول من اتخذه بين الشرق وأوروبا.

نحتفل هذه السنة بالذات بالذكرى المئوية الرابعة لتأسيس المعهد الماروني في روما الذي أنشأه غريغوار الثالث عشر. ولقد تتبعتُ مهنياً إعداد أطروحة كرسها الأب نصار جميل لهذا الموضوع. هذه المجموعة، التي لم يكتفِ غرضها بموضوع واحد، حتى وإن كان جوهرياً، بل يشمل المسار الماروني برمته، تنوي نهج طريق الأب نصار الذي توسع بحثه ليتناول تأسيس معهد عين الورقة عام 1789، النظير المطابق في لبنان لما كان عليه المعهد الماروني في روما.

تم اتهامنا في هذا المجال كذلك بخدمة مشروع بطابع استعماري يزداد خطورة في المجال الثقافي عنه في المجال السياسي نظراً إلى أنه أرسى نهائياً ارتباطنا الاقتصادي بالغرب الصناعي.

أُقر أنه، في هذا المجال بالتحديد، هناك من الموارنة والأرثوذوكس من يتجاهر بحماس زائد بالمارونية السياسية ويقع في الفخ إما بالمناداة

بالازدواجية اللغوية والوطنية والقانونية، وإما بدعم «لغة لبنانية». لكن الجدال حول اللغات لا يرتقي إلا المركز الثالث في مشروع الموارنة الثقافي الذي أجده مثالياً بالنسبة إلى الشرق لأن الشرق صادق عليه فعلاً.

أولاً، من الضروري اعتماد وسائل البحث العلمية والتقنية التي أُعدت في أوروبا الغربية منذ بدايات عصر النهضة. في هذا الإطار، تشكل المطبعة الأداة التقنية المثلى لنشر المعطيات التي قام البحث العلمي بجردها.

ثانياً، يجتهد البحث لوضع جردة إرث الإنسانية التاريخي والفلسفي والعلمي والفني. ويشكل الرجوع إلى العصور القديمة مظهراً من مظاهر هذه العملية الجرد، لكنه أساسي ولا سيما أنه يحمي كل اعتراف بالهوية ضد الخيارات الاعتباطية التي تتخذ في لحظة معينة، وأنه يربط كل اعتراف وطني على النحو ذاته بمجمل التراث.

لم نناقش حتى الآن موضوع اللغات وإنما الفلسفة الإنسانية، وهي هذه الفلسفة الإنسانية التي نشأت في أوروبا في عصر النهضة، أي قبل إنسانية عصر الأنوار بكثير، التي تبناها الموارنة وعملوا لها وأصبحت الخير الذي عمّ على الشرق العربي بأسره.

لكن بمَ تختلف فلسفة الموارنة الإنسانية عن إنسانية الطبقة المثقفة أو حتى عامة العرب، وأين تكمن أهمية اللغات في هذا المجال؟

يبدو لي أن الاختلاف يكمن في نقطتين:

أ. عندما ننظر بشكل عام ليس إلى الموقف الإنساني وإنما إلى فحوى التراث المادي، نستنتج أن الموارنة قد تعربوا أقلّه منذ القرن الحادي عشر، حيث إن أول مؤلف خالد في مجال الروحانيات والقانون الماروني، والذي يمكن للقارئ أن يتعرف إليه في الكراسة الثالثة من الجزء الأول، لم يعد يعرف إلا باللغة العربية ويحمل عنوان: كتاب الهدى. من ناحية أخرى، أصبح هذا التعريب شبه كلي منذ القرن الثامن عشر. انطلاقاً من هذا التاريخ بالفعل، سبق الموارنة في حلب بمئة سنة النهضة السورية اللبنانية التي ستجد في مصر أرضية خصبة تسهل انتشارها. لكن تعريب الموارنة من أول الألفية الثانية إلى آخرها لم يتغلب على السريانية لا في الطقوس ولا كخلفية أو منبع عميق للثقافة.

إنّ التقاليد المارونية لا تبحث لنفسها عن منفعة ذاتية، مهما بدت شرعية، بل تقدم التماساً لا بد أن يتأثر فيه كل عربي حريص على كمالية ثقافته ودورها العالمي. إذ لا يمكن لعروبة جديرة بهذا الاسم أن تبقى بمنأى عن السريانية كلغة أخت للعربية تشتركان معاً في سامية واحدة. لا يمكنها ذلك نظراً إلى الامتياز الوحيد الذي تتمتع به السريانية عن اللغات السامية الأخرى، امتياز دور الوساطة في نقل المقولات اليونانية وثقافتها ومفاهيمها. فالسريانية إذاً، في قلب العروبة ليس كتذكير بأصولهما السامية المشتركة فحسب، وإنما هي القناة التي تطلّبها الخيار الحر الذي اتخذته العروبة في عصرها الذهبي، عندما كانت العروبة تنهل من المنبع اليوناني.

ب. فيما يتعلق باللغات الحديثة، ألاحظ أن الموارنة لم يتعلموا الفرنسية أو أقلّه لم يكتبوا باللغة الفرنسية إلا منذ القرن الماضي. لكن حين اقتضى الأمر أن يتصل الموارنة بأوروبا، تزاحمت في نفوسهم ضرورة تعليم أوروبا لغات الشرق، وضرورة أن يتعلموا هم أنفسهم لغات أوروبا. وهذه ضرورة أساسية في الحوار عندما نريد أن يحترم الحوار احتراماً كلياً قوانين الضيافة. وهي ضرورة ملحة خصوصاً عندما يرفض رجل الحوار أن يبقى متلقياً عادياً ومستهلكاً بشكل عام، وعندما لا يريد أن يلعب دور المأجور، بل يطالب بدور الشريك. من المستعمرين من لم يهتم إطلاقاً بتعليم الشعوب المستعمَرة لغة سلطتهم، واكتفى باستخدام لغة مبسطة عندما يتوجه إليهم بالكلام، كمثال الملك شارل الخامس الذي كان يقول إنه يتحدث مع حصانه بالألمانية. لكن الموارنة الذين لم تكن لديهم قطّ عقدة نقص شعب تستعمره أوروبا صمّوا آذنهم عن هذا. فذكّروا العرب إذاً، بما تعلمه العرب من أنفسهم عندما كانوا خلاقين مبدعين وليسوا مستهلِكين. إن التمكن من لغة أجنبية كوسيلة مفيدة للتنفيس الفكري هو الأداة الضرورية للإبداع في الحداثة.

أستخدم كلمة حداثة للمرة الأولى في هذه المقدمة. ربمّا قد تتوّج من الآن فصاعداً مجمل كلامي ككاتب للخماسية الإنطاكية/ أبعاد مارونية. وإني أحيل القارئ إلى نهاية الجزء الأخير حيث لا أتوانى عن وصف كنيستنا ذاتها كـ «كنيسة الحداثة الثقافية».

لكن كنيستنا تبقى أولاً ودائماً «كنيسة الزهد والمدح الإلهي»، كما تمت الإشارة إليه كذلك في موضعه، وبهذه الطريقة أنشأت «شعباً يعشق الحرية ولو أنه في حنين دائم إلى التعايش». (أنظر الجزء الخامس، القسم الثالث، ذاكرة أمل). أياً كانت الإشكالية التي يجد القارئ نفسه ملتزماً بها إلى جانب كاتب هذه المجموعة، فليتفضل بالدخول إلى هذا التراث بفكر حر وصراحة موقف. فكل ما قيل له لغاية الآن من كلام قد يبدو عدائياً ليس إلا ليسلك الطريق ويبدد الغيوم. وإن فضّل القارئ الصورة على النص، فليفعل وليبتدئ بالصورة. لكن الصورة ستعيده إلى النص، وأنا على يقين بأنه سيصبح، بتآلفه مع الروح المارونية في الصورة والنص، أكثر حباً للسلام وأكثر إنسانية. ومهما تجرع الموارنة من محن على طول تاريخهم، مع ما تتركه هذه المحن على شعب من شدة وحذر وإباء مهان، فإن الاعتراف بتراثهم يزوّد من يقترب منه ويتعاطاه ما أنعم بفيض على كاتب هذه المجموعة : فرح يتجاوز كل حقد أو مرارة وثقة على قدر جسامة المخاطر، وقبل كل شيء حمد مستديم لله.

وفي ختام هذه المقدمة، سأقول مع من واقتداءً بمن أكرس حياتي لهذا الموقف.

كلمة إيحائية ختامية

كنت قد قررت لهذا الاستطراد الاستهلالي التمنع عن ذكر الأحياء الذين أنتمي إليهم وأن أكتفي بالمتوفّين. ظننت ذلك أسهل لي نظراً إلى

العدد الكبير من الأحياء الذين أود شكرهم، وإلى خشية نسيان بعضهم. سنرى أني في نهاية الأمر قمت بواجبي مع أني لم أتحرر كلياً من الدين بالرغم من هول التذكرة التي يمكن قراءتها فيما بعد. في المقابل، صرفت النظر هذه المرة عن فتح سجل المثوى الذي تلقي منه الأبدية أشعتها على كل صفحات هذه المجموعة.

حسبي أن أستذكر مثال جد أمي. ففي أولى ذكريات طفولتي، أراه يمتطي فرسه الشهباء، وهو الذي تجاوز حينذاك التسعين من عمره، ليذهب ويشارك في إزاحة الستار عن تمثال تكريماً ليوسف بك كرم. فلقد كان حقاً أحد رجال نضال البطولة في لبنان، وقد توفي في المنفى عام 1889.

بمعنى آخر، هذا الباب الخاص بالأموات فريد في نوعه، وهو يضم كل أولئك، من وفيات جيلي إلى جيل أوائل تلاميذ مار مارون الذي كان قسيساً وراهباً في عصر يوحنا كريزوستوم، والذين يشكلون عائلة واحدة أحتفل بذكراها. لن يُفتح إذاً، باب الوفيات هنا، لأنه يشمل هذه المجموعة برمتها.

لن يفوت القارئ، وسط هذا الحشد الكبير من الشهود المذكورين، رؤية بروز أولئك الذين ألهمتني مقاماتهم التواضع مثلما بعثت بي الورع المطبوع بالإعجاب. هكذا كرست ساعات طويلة لقراءة وترجمة البطريرك اصطفان الدويهي، أحد أكبر بركات عمري. فما كنت أقوم به في مطلع شيخوختي ليس إلا العودة إلى قراءاتي، عندما كنت في ريعان شبابي، في كتب أبي وأجدادي الذين كانوا خوارنة رعية.

ففي هذه العودة العاطفية إلى حجر أمي التي يمثّلها بالنسبة اليّ إعداد الخماسية الإنطاكية| أبعاد مارونية وكتابتها، أتمنى، بكل بساطة، أن يحمل القارئ نظره إلى القمم الشامخة التي اعتلاها أنبل آل مارون بسبب ضراوة المصير التي كانت قسمتهم في العيش. لكن في هذه الحالة، حتى شواهد المارونية شهرة الذين عنيتُ بالتعرف إليهم هم يجلسون في نفس العلو والجرد المليء بالأحجار. وإني لا أعرضهم إذاً، لفضول القارئ وإنما، استهانة بكل ذي وقع صاخب، لبحثه عن العفة والحكمة.

لهذا، فإن القارئ سيحمل نظره إلى كل منعطفات الطريق، إلى تلك التي نبتهل إليها كعرش الحكمة، والتي باركها أبناء طائفتي من جيل لآخر لأن الله تفضل بتكريم تواضع خادمته. ففي النضال القديم العهد الذي جعل من تاريخ الشعب الماروني سلسلة لا تنتهي من الإهانات والآلام، سيكتشف القارئ سر بهجتنا واعتزازنا، ويفهم لمَ أم مصلوب هي أمنا وسيدتنا.

فتحت أقدامها أضع، قبل أن تمنحني مراحل هذا المسار فرصاً أخرى للقيام به، إهداء هذه المجموعة الخاشع. وما أرجو في نهاية المطاف من هذا العمل إلا حباً أكبر لاسمها وتمجيداً له إلى حد النشوة بالرغم من أتراح الوقت الحالي، عندما أتأمل المجد الذي ألقاه الله كشراع بهاء وروعة على جبل لبنان تكريماً لها.

تنبيه

كمواطن ومؤمن أنفر من كل تملك فيه تحزب. فتكريس مجموعة بحالها للتراث الماروني، حتى ولو كان في إطار المسيحية الإنطاكية، هي عملية يجب ألا تؤدي إلى تضليل.

يظهر الموارنة حماسة وغيرة لما يحفل به أبناء طائفتهم أو بلدهم حيثما كانوا. فإن كان ثمة شيء اسمه ماروني، فهو أن يتقبله الغير ويتعرف إليه ويثمنه كما يراه. هذه الخماسية الإنطاكية | أبعاد مارونية التي أحجمت عن إدراج مواضيع جمة وعدد لا بأس به من البلدان غير المارونية لا تنوي، على الإطلاق، القيام بالتملك أو حتى بالتفرقة أو التمييز.

يعود فضل ترجمتَي الإلياذة اللتين عرفهما الشرق الشامي إلى شخصيات مارونية. فالترجمة الأولى صدرت بالسريانية في القرن الثامن نسبها بار إبرايوس إلى تيوفيل الأورفي وهو ماروني، والأخرى ترجمة باللغة العربية ظهرت في القرن التاسع عشر قام بها سليمان البستاني الذي اضطر أن يتعلم اليونانية لينقل لنا هوميروس شعراً.

أعطي هذا المثل لأقول: إن أخيار الموارنة ليسوا للموارنة، أو إن خير ما يمتلكون هو خير يعمّ على الجميع. إن خير هذه المجموعة في مراجعه التوراتية. فلو تم نسخ هذه المقاطع، لتضاعف حجم المجموعة.

فلو كان إذاً، لأجزاء هذه المجموعة فائدة ما، فهي على قدر ما

تبرز أن الموارنة يتمتعون في حضن الكنيسة العالمية بموهبة وهبت للمؤمنين كافة، وأن أخيار الموارنة في عالمهم الثقافي هم من يعترف بكفاءتهم زملاؤهم من الأديان الأخرى. فمن أشهرهم عالمياً جبران خليل جبران صاحب كتاب النبي، وقلة قليلة من سكان الأرض تعرف أنه ماروني.

لماذا، والحالة هذه، خماسية تكرس للتراث الماروني، ولماذا التمييز بين الأدباء الموارنة وغيرهم، والتاريخ الماروني عن التاريخ العام للبطريركية الإنطاكية وسائر المشرق ؟ فإن لم يتضح السبب في المقدمة التي سبقت بشكل كاف، آمل أن تبرره الأجزاء كافة.

الجنرال ديغول ولبنان[1]

ثلاث إقامات وثلاثة خطابات، سببان وعاطفة واحدة، تلك هي العناصر التي اخترتها لإبرازها لكم خلال هذا العرض الوجيز لعلاقة الجنرال ديغول بلبنان. بعبارة واضحة أقول: إن ما يغذي تأملنا في هذه المحاضرة التي تمهد السبيل للبيان الإجمالي النهائي هي المرات الثلاث التي أقامها الجنرال ديغول في لبنان والخطابات الثلاثة التي وجهها للبنانيين وأخيراً، مصلحتا فرنسا في المشرق، ترتكز جميعها على عاطفة مميزة ترتبط خصوصاً بلبنان.

لكن دون أن نفصل لبنان عن محيطه الشرق أوسطي والمتوسطي الذي تم الحديث عنه في هذا المؤتمر، أود أن أكرس نفسي حصراً لبلد مسقط رأسي، وأن أعوض عن مشاعر الحزن التي يستوحيها وضع بلدي الحالي بحوافز أمل عبرت عنها عاطفة الجنرال ديغول وأقواله وأعماله.

(1) إنطاكية مارونية، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص 940-946.

وإن كان لا بد لي أن أعتذر عن الطريقة المختصرة التي أقدم فيها مجمل هذا العرض، فإنه من الضروري جداً أن أستذكر المراجع والمصادر التي يدين لها حديثي هذا، ولاسيما أن معرفتي الأكاديمية بحياة شارل ديغول ونتاجه أقل بكثير من إيماني الشديد بعبقريته.

فمن باب الاعتراف بالجميل أن أذكّر أنّ أول وثيقة قمت بدراستها وُضعت منذ أربع سنوات بمعاونة رئيس القسم اللبناني في معهد ديغول، السيد فاهي دافيديان (Vahé Davidian).

لقد استمعنا إلى أرماند بينيول (Armand Pignol)، لكني كنت قد اطلعت على بواكير بحثه حيث إنه أرسل لي بطريقة ودية المحاضرة التي قدمها حديثاً في جامعة باريس الرابعة.

بالنسبة إلى عرض فيليب دوماس (Philippe Daumas)، لقد اطلعت على أطروحة جامعية بعنوان «سياسة ديغول الشرق أوسطية، العاطفة والعقل، 1958 - 1969»، التي قام بالدفاع عنها دنيس كرينان (Denis Krynen) في 24 تشرين الأول/ أوكتوبر 1975 في تولوز. نجد صدى جوهرياً لهذه الإطروحة في «المجلة السياسية البرلمانية»، العدد 801، إضافة إلى مقطع نشرته مجلة «أصداء لبنان»، النشرة الشهرية التي يصدرها في باريس «البيت الفرنسي- اللبناني».

غير أن جلّ ما سأقدمه لكم استقيت منابعه من كتابات الجنرال ديغول نفسه. لكن قبل كل شيء، عليّ أن أذكر بعض المعاونين والمعلقين وأمناء السر الذين أعتبرهم من خاصة المقربين، وأن

أشير، إضافة إلى موريس كوف دي مورفيل (Maurice Couve de Murville) وجان مورياك، إلى إوليفيه جرمان توماس وإدوارد بونيون وفيليب دي سان روبير وكذلك المعاونين والناشطين كافة في معهد شارل ديغول في باريس.

ولكي أختم هذه الإشارات الخاصة بالمصادر والمراجع، أجد من الطبيعي، وأنا أفسح المجال لأصداء الأصوات اللبنانية التي اجتهدت قبلي ليس بالدراسة طبعاً وإنما بالاحتفاء بالجنرال ديغول، أن أشيد برئيسَي الجمهورية اللبنانية اللذَين عرفاه، حيث أنه سبق لأحدهما أن عمل إلى جانبه، وأقصد فخامة الرئيس شارل الحلو الذي استقبله مؤسس الجمهورية الخامسة في باريس عام 1965، ومن قبله الأمير فؤاد شهاب الذي نشرت عنه مجلة «أمل» في عددها الرابع شهادة قيّمة تظهر علاقة شارل ديغول بلبنان من عام 1930 إلى عام 1970.

1. الإقامات الثلاث

في الشهادة التي أتيت على ذكرها، كتب الجنرال فؤاد شهاب ملمِّحاً إلى فترة فرنسا الحرة قائلاً: «كان الجنرال ديغول يزور حينذاك لبنان بشكل متواتر». هذا صحيح تمام الصحة. لكن ما يهمنا، وبالنظر إلى هذه الزيارات التي كان الجنرال ديغول يردد بنفسه أصداءها، هو أن أنوّه فقط بالمرتين اللتين أقام خلالهما في بلاد الشام في فترة فرنسا الحرة: الأولى تمتد من 25 تموز/ يوليو إلى 21 آب/ أغسطس من عام 1941، والأخرى من 11 أيلول/ سبتمبر إلى 10 تشرين الأول/

اوكتوبر من عام 1942. ترتبط هاتان الإقامتان بالحملة التي عُرفت باسم حملة سوريا والتي شُنت لجلاء فرق فيشي (Vichy) في ربيع عام 1941 وصيفه. أما هدف الإقامة الثانية فكان من أجل حل بعض المشكلات التي سببها ذلك الوضع بين الحلفاء. هذا ما سأقوم بتحليله أدناه وأستخدمه في بعض تأملاتي، بالرجوع إلى الأحداث «المؤسفة» (العبارة عبارة الجنرال ديغول) التي رافقت نيل لبنان استقلاله في تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1943، والتي سلّم الجنرال ديغول كلياً زمام أمرها إلى الجنرال كاترو (Catroux) فأصبح بذلك مطلق الصلاحية عنه في المنطقة.

دون أن نغفل عن التذكير بإقامة الجنرال الأولى في بيروت «كقائد للمكتبين الثاني والثالث»، كما يقول في رسالة لأبيه («مذكرات ومفكرات»، الجزء الأول، ص. 365، س. 23؛ مما يدع الحيرة في النفوس لأن مرتبته عموماً في هيئة الأركان العامة للجيش في الشرق هي على رأس المكتب الثالث فقط).

مهما يكن من أمر، فإن هذه الإقامة ستدوم من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1929 إلى شهر كانون الثاني/ يناير من عام 1932، أي ما يعادل 27 شهراً، ويحتفل لبنان بذكرى هذه الإقامة بلوحة تذكارية معلقة على منزل أسرة ديغول في بيروت تم تدشينها في 18 تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1974 بحضور جاك فاندرو (Jacques Vendroux) شقيق زوجة الجنرال. ومنذ ذلك الحين، وبطلب من

معهد شارل ديغول، صدر مرسوم يصنف المنزل الذي نحن بصدد الحديث عنه بيتاً تاريخياً. وفي 9 تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1972 في كولومباي، قرية الجنرال، تم زرع ألف شجرة أرز على التلة التي يسهر في أعاليها على نوم الجنرال الأبدي صليب منطقة اللورين.

2. الخطابات الثلاثة

من بين الخطابات التي ألقاها الجنرال، أفضّل ثلاثة منها تتطابق مع الإقامات الثلاث وتعبر بطريقة مثلى عن نظرته إلى لبنان وإلى شعب لبنان. يعود الخطاب الأول إلى فترة الانتداب، والثاني إلى فترة الحرب العالمية الثانية، والثالث إلى زمن الجمهورية الخامسة. مما يظهر استمراريةً تُلفت الأنظار.

لقد ألقى الجنرال ديغول خطابه الأول في 3 تموز/ يوليو من عام 1931 خلال حفلة توزيع الجوائز في جامعة القديس يوسف. وقد جاء ذكره في الجزء الأول من كتاب فيليب ديغول «مذكرات ووثائق» الذي صدر في شهر آذار/ مارس الماضي. لكن لحسن الحظ قام معهد شارل ديغول في تلك الأثناء باقتطاعه ونشره في ملحق مجلد «مختارات» تحت عنوان «للمستقبل». وها أنا بدوري أستخرج المقاطع التالية :

«الاجتماع هو اجتماع جوقة أحاسيس ومشاعر... والعالم يحتاج إلى تجدد. أيها الشباب، بأي طابع سيطبع زمانكم؟... التفاني في سبيل الخير العام، ذلك هو الضروري... فبالنسبة إليكم، أيها الشباب اللبناني، هذا الواجب العظيم يأخذ معنى مباشراً وملحاً، لأن

ما ينتظركم هو بناء وطن. فمن شأنكم أن تبنوا دولة على هذه الأرض الرائعة المجبولة بالتاريخ، عمادكم أسوار جبالكم، والبحر رباطكم بفعاليات الغرب، وعونكم الحكمة وقوة فرنسا. فما من دولة بُنيت دون تفانٍ وتضحية، ومن التضحيات نشأت دولة لبنان... نعم، سيخرج غداً الشباب اللبناني من هنا، وسيتمخض عنه منذ الآن شعب مثقل بواجبات الحرية الجسيمة».

أما الخطاب الثاني الذي أود أن أردد صداه هو ذاك الذي ألقاه في بيروت في 27 تموز/ يوليو من عام 1941. وإني أُبقي فاتحة هذا النص إلى النهاية، للتلذذ بها كما يقال. في الواقع، لو لم يكن لدي سبب آخر لمحبة شخصية الجنرال ديغول، لكفتْ هذه الفاتحة أن تلهمني عاطفةً لا نكنّها إلا لذوي الأرحام، أقصد هذا الميل الداخلي المنبعث بلا شك من أعماق أحشائنا، لكن ما من شيء يبرره أصلاً سوى خيار واحد يأتي محك الزمن ليضفي عليه تميّزه وليكرسّه.

لكن بانتظار قراءة مقدمته، إليكم بعضاً من أقوال خطاب 27/ 7/ 41، أي غداة أقسى محنة عاشتها فرنسا الحرة باعتراف قائدها:

«لقد فهمنا منذ الدقائق الأولى لوجودنا بينكم، وأدركنا إلى أي حد كان حدس صداقتكم لنا عميقاً، وأدركنا كذلك أنكم كنتم تدركون إدراكاً رائعاً، بالرغم من حصول مأساة مرعبة، بالرغم من كل شيء، أنه ما من شيء يضعف استمرارية فرنسا».

أما الخطاب الثالث فلقد وُجه إلى اللبنانيين عن طريق رئيسهم،

وذلك خلال الزيارة الرسمية التي أداها الرئيس شارل الحلو إلى باريس عام 1965. لكن بدلاً من استعادة الخطبة الطويلة نوعاً ما التي وجهها له في قصر الإيليزيه الرئيس الأول للجمهورية الخامسة، أكتفي بتقديم كلمة الترحيب الموجزة التي أُلقيت في أورلي:

«إن فرنسا، قال الجنرال ديغول، باستقبال فخامتكم، تهنئ نفسها باستقبال لبنان الذي تعرفه وتجله وتحبه منذ أمد طويل. لاسيما وأن وضع بلدكم، أقصد وضع دولة حرة مستقلة في منطقة من العالم حبلى بالتغيرات، يحملنا على النظر إليه باهتمام أكثر من أي وقت مضى».

تلك هي تحديداً أسباب اهتمام فرنسا بلبنان والتي لم يبق لي إلا أن أسترجعها أمامكم، لكن بإحساس خاص تستند إليه العبارة الختامية لحديثي هذا.

3. سببان وعاطفة واحدة

تبعاً لما أشار إليه فيليب دوما (Philippe Daumas) بخصوص المسألة الفلسطينية، أقول: إن لبنان يجد مكانته في رؤية الجنرال ديغول حيث إن فرنسا، كبلد يتمتع في تاريخ الواجبات والحقوق ببعد دولي، تعترف داخل المشرق المتوسطي بمنطقة ضرورية لبقائها وللسلام العالمي على السواء.

أ. إن آخر عبارة تلفظت بها السياسة الفرنسية في هذا الصدد هي تحديداً «السياسة العربية» لمؤسس الجمهورية الخامسة. لكن هذه السياسة تم تبنيها في فترة كان فيها سعر برميل النفط أقل من دولارَين.

بمعنى آخر، إن الجانب الاقتصادي لهذه السياسة أساسي، لكنه كان الشأن نفسه دون أن يكون لا الأمر الوحيد ولا الأهم.

كذلك يمكن أن تُسمى على السواء هذه السياسة العربية سياسة فرنسا الإسلامية. فهي إن لم ترجع إلى عهد شارلمان، يعود ترسيخها بشكل أكيد إلى الفترة التي وقّع فيها فرنسوا الأول مع سليمان العظيم اتفاقية الامتيازات الأجنبية. بمعنى آخر، إن كان المقصود العثمانيَّ العظيم أو أمير المؤمنين، فإن فرنسا تحتاج بشكل مطلق إلى هذا التحالف الإسلامي لتقاوم القوى التي، داخل أوروبا يقال لها مسيحية، قد تستولي عليها لا بل تدمرها. حينما سُجن فرنسوا الأول في سجون شارل الخامس في مدينة بافيا في منطقة اللومباردي في إيطاليا تحالف مع الباب العالي. وعندما كان حيوياً القضاء على إنكلترا وقطع طريق الهند عليها ثبّت بونابرت قدميه في مصر. ولأجل كسر محور النازية والفاشية وتحرير فرنسا المحتلة قام شارل ديغول على مضض منه بحملة قاتل فيها الفرنسيون بعضهم بعضاً في سوريا ولبنان.

فلبنان إذاً، جزء من هذه المنطقة التي لا بد لفرنسا أن توجد فيها بهدف تثبيت وجودها وشخصيتها ولعب دورها الخاص بها في تناغم الأمم أو كما هو الأغلب في صراعاتها.

لذلك، عندما هاجم الجنرال ديغول إسرائيل، بعدما دمّرت أسطول لبنان المدني في مطار بيروت، فإنه قام بذلك دون أدنى شك صداقةً للبنان وإنصافاً منه معاً. لكن من المؤكد أنه يريد بهذا أن يقف

مقاوماً موقف بلد ناهضه في حزيران/ يونيو 1967، وهو قد قام بشجب سياسته بلا مواربة في مؤتمره الصحفي الشهير الذي عقده في 27 تشرين الثاني/ نوفمبر من العام نفسه.

لكن قبل ذلك بعشر سنين، عندما طلب كميل شمعون من مؤسس الجمهورية الخامسة أن يطير لنجدة لبنان الذي زعم أنه في خطر وأن ينضم إلى الضمانة الأنجلو-أميركية التي عُرضت وقتذاك على لبنان والأردن، رفض الجنرال ديغول بشكل قاطع وصريح. حيث إنه، حسب رأيه، ليس في مصلحة لبنان أن تطأ البحرية الأميركية (المارينز) سواحل لبنان، وكذلك ليس في مصلحة فرنسا أن تتورط في هذه المغامرة. بل إنها على العكس هي مناسبة لكي تقف ضد الهيمنة الأنجلو سكسونية ولتبحث بين القوى العظمى بما فيها الاتحاد السوفياتي، عن توازن عالمي جديد انطلاقاً من منطقة بالغة التأثر كمنطقة الشرق المتوسط.

ب. ما من شك أن نقطة إرساء سياسة فرنسا في المشرق هي أو بالأحرى يجب أن تكون مصر، خصوصاً بسبب منطقة قناة السويس. والجنرال ديغول، كرجل سياسة محنك وخبير بالجغرافيا السياسية، يعي هذا الأمر كلياً. إلا أن الواقع هو أن منطقة الإرساء المعهودة للسياسة الفرنسية تقع أكثر شمالاً؛ لكن بدلاً من أن تكون في فلسطين حيث تملك فرنسا سلطة على الأماكن المقدسة معترفاً بها في المعاهدات الدولية، فهي في المنطقة التي تؤلف فيها سوريا ولبنان المجموعة المعروفة تقليدياً منذ العصر الكلاسيكي باسم المشرق (Le levant).

لقد وجه الجنرال ديغول إلى سوريا كلاماً شاجباً نوعاً ما في فترة الصراعات الفرنسية السورية على الاستقلال. وبمناسبة خطاب ألقاه في مجلس النواب، لا شك أنه ذو أسلوب برلماني، أنكر الجنرال ديغول على هذا البلد أنه شكل يوماً، خلافاً لمصر والعراق، دولة بالمعنى الحصري، بسبب تعدد سكانه الكبير والرسم غير الواضح لحدوده الطبيعية. والجنرال ديغول متمسك بسوريا لأنها جزء من دول المشرق، ولأن التاريخ شاءه هكذا لفرنسا أقلّه منذ فترة الصليبيين، وأن الجغرافيا التي وهبت لبنان خصوصيته بقدر ما أنعم عليه التاريخ، لم تمنع هذا البلد من أن يؤلف مع سوريا مجموعة يجب على فرنسا أن تخصها امتيازاً في فعاليتها، دون التمكن من فصلهما عن بعضهما بعضاً.

إليكم ما كتبه شارل ديغول في الجزء الأول من كتابه «ذكريات حرب»، وفي الفصل الذي استهله بجملته المشهورة : «نحو الشرق المعقد كنت أنطلق بأفكار بسيطة» :

«رسمت مع الجنرال كاترو مخططاتنا. فما يمكن أن يجري في سوريا ولبنان كان النقطة الجوهرية بالنسبة إلينا. عاجلاً أم آجلاً علينا الذهاب إلى هناك. فمنذ اليوم الذي قد نوجد فيه هناك، يُفسح المجال لفرنسا أن تقدم مساهمة هامة في مجهود (الحلفاء) المشترك. وإلا، فإن ضاعت هذه الفرصة، فإن مكانة فرنسا ستتأثر على النحو ذاته. لأنه إذا فرضنا أن المحور هو المنتصر، فإنه سيكون المسيطِر هنا وهناك. وفي حالة العكس، فالإنكليز يستولون على المكانة».

نعلم ما آلت إليه الأمور. لم ينتصر المحور، وإنكلترا لم تستولِ على مكانة فرنسا. لكنها قامت بالأرذل. لقد ساهمت إنكلترا بترحيل فرنسا من معقلها المعهود في المشرق، وهو حسب ديغول الواقعة الحربية التي أحدثت لفرنسا الضرر الأكبر، كما قد جرّت مصائب كبرى إلى المنطقة.

أن تُحدث هذه الواقعة مصائب كبرى في المنطقة بالرغم من توصل لبنان وسوريا إلى استقلالهما، هذا ما قد يستوجب مني عرضاً إضافياً لأبينه. في الواقع، إن فعالية فرنسا التي أبطلتها بريطانيا حلت محلها القوى العظمى وأدت إلى قيام دولة إسرائيل. ولانعدام التوازن بين هذه الأخيرة ودول حرة ومستقلة كما اقترح الجنرال ديغول التفاوض في تأسيسها مع المعنيين، لم يكن قيام دولة إسرائيل، الذي مهّد له البريطانيون منذ مدة طويلة، إلا ليؤدي إلى تدخل القوى العظمى وإخضاع الدول العربية الجديدة برمتها لهذه القوى عن طريق الدولة اليهودية، وبالتالي الحد من أهمية استقلالها. على كل حال، هذا ما نلاحظه في هذه الفترة في المنطقة التي تثير اهتمامنا.

لكن، أن يؤدي إقصاء فرنسا هذا من سوريا ولبنان إلى مصائب أكبر بالنسبة إلى فرنسا ذاتها بين عامي 1942 و1945 من خلال زعزعة دورها في العالم بعد الحرب العالمية الثانية (في الحقيقة، حتى عودة الجنرال ديغول إلى السلطة)، حسبنا لإقناع أنفسنا أن نتذكر ما كلفته جهود إعادة مكانة فرنسا في المنطقة من «آلام وأحزان»، حسب عباراته

الخاصة ، وكيف أن «حزن» رئيس فرنسا الحرة وقتذاك على قدْرٍ ليس مصيره الخاص، وإنما على قدر مصير فرنسا. إليكم في الواقع ما قاله الجنرال ديغول في صباح 27 تموز/ يوليو 1941 إلى فرنسيي بيروت :

«وإذا حدث للأسف - هذا ما برهنته الأسابيع الأخيرة - أن مجهودنا قد يفضي إلى الأحداث الأكثر إيلاماً، أرجو منكم أن تصدقوا أن أحداً لم يتألم منها في قلبه أكثر من رئيس الفرنسيين الأحرار. لكني أرجو منكم أن تصدقوا كذلك أنه حتى ولا أكبر الأحزان تجعلنا نسلو عن الطريق الذي نتبعه لنعيد فرنسا إلى مصيرها».

ج. ففي بعد ظهر ذلك اليوم نفسه وجه الجنرال ديغول إلى اللبنانيين كلاماً احتفظت به إلى نهاية هذا العرض. لإعادة فرنسا إلى مصيرها، ذكّرنا أن وجودها ضروري للشرق، وأنه في هذا المشرق الألفي، في الشرق، ألقت فرنسا مرساها. إليكم الآن، ليس بأي جسر، وإنما بأي قلب تعلق مصير فرنسا في المشرق. إليكم شهادة رئيس الفرنسيين الأحرار في ذلك الوقت :

«إذا كنا سعيدين باستعادة الاتصال بلبنان منذ البارحة، لأنه، أولاً وبشكل بديهي، أستطيع أن أقول لكم: إن ذكر اسم لبنان فقط يهيّج شيئاً خاصاً في قلب كل فرنسي جدير بهذا الاسم. وأضيف: إن هذا مبرر بمقدار ما كان اللبنانيون، الأحرار الأباة، الشعب الوحيد في تاريخ العالم الذي على مر القرون، وأياً كانت الظروف الطارئة والأتراح والأفراح والمصائر، الشعب الوحيد الذي لم يتوقف فؤاده يوماً عن الخفقان على إيقاع قلب فرنسا».

خلاصة

لقد اعتقدت دوماً أن رسالة بلد مسقط رأسي سُجلت لا في الزمن وإنما في الأزلية، إن صح القول إن لبنان معلق بقلب الله نفسه، وإنه من لبنان ينتظر إله التراتيل رؤية ظهور حبيبته.

لكن تسمحون لي أن أضيف اليوم إلى هذا الأمل الداخلي يقيناً إضافياً ليس على مستوى رسالة لبنان الروحية وإنما على مستوى مصيره التاريخي. هذا اليقين المجرد من الإلهية والذي يسمو بكثير على اليقين السياسي، أجده في المقام المتميز الفريد الذي اعترف به يوماً للبنان، كما استمعنا إليه، الجنرال ديغول.

النتيجة هي أني أقول لنفسي لو كان الجنرال ديغول لا يزال على قيد الحياة، لما كانت الأمور كما هي عليه الآن. أي إن الثقة التي أستمدها من رؤيته وعاطفته قد تزعزعت بقوة. والسبب البديهي لهذا التزعزع هو أنني لم أعد أتأمل شيئاً بعد ولاية رئاسية دامت سبع سنوات اكتفت خلالها فرنسا بالكلام وذر الرماد في العيون حين كان وجود لبنان نفسه في خطر، وأقول هذا دون مراعاة كاذبة، لا أنتظر شيئاً من الولاية الجديدة التي تُستهل، طالما أنها تقيم بين تحييد الجماهير الشيوعية لهذا البلد والتجاهل المتعمَّد لآمال ديغول، النظام الذي أسميه مستنداً إلى حكمة مالرو (Malraux) نظام اللاشيء في فرنسا. إذ لا شيء بيننا وبين الشيوعيين كما كان يقول مالرو.

مع هذا، قد أخون الإلهام الذي استجديت منه ليس عرض هذا

اليوم فحسب وإنما خير ما فيه التزامي نحو فرنسا ولبنان، إن لم أعبر بالرغم من كل شيء عن ثقة لا تُقاوَم في مصير لبنان التاريخي. فعلاوة على رسالته الروحية، إن مصيره مكفول له بما أن فؤاده لا يتوانى، كما قال شارل ديغول، عن الخفقان على إيقاع قلب فرنسا.

الجزء الثاني

قضايا فلسطينية

مسلمون ومسيحيون ويهود
أمام اختبار فلسطين[1]

1. يواجه اليهود والمسيحيون والمسلمون في اختبار فلسطين خيارات ثلاثة.

كان بوسعي، بدلاً من كلمة خيارات، أن أتحدّث عن رهانات أو تحدّيات أو أن أستخدم بكل بساطة كلمة مسألة. لكني آثرتُ كلمة خيار لأنّها تفترض أنّ المسألة مطروحة بوضوح تام وأنه يمكن معالجتها بكل هدوء. فأمام اختبار فلسطين، هناك خيار يفرض نفسه على الضمير الديني، لكنه قادر على تحمّله بحرية وعلى فتح آفاق أمل واسعة، في وضع مستعصٍ على الحل ظاهرياً فقط.

2. أُقصي من الخيار، أو الخيارات الفلسطينية المطروحة علينا، التماس العدالة، وإن كانت ضرورية جدًا من حيث الضمير الديني.

إذ لا يمكن للمرء أن يتحدّث عن العدالة في فلسطين، دون

---

(1) خماسية إسلامية مسيحية، المجلد الخامس، ص 145-173. وهو نص محاضرة أُلقيت في جمعية التضامن الفرنسية العربية (باريس، حزيران/ يونيو 1970).

الدخول في مرافعة تدافع عن الشعب الفلسطيني وقد عدلتُ عن متابعة هذا المسار بالرغم من قوة ارتباطه بقناعاتي الخاصة وشدّة تطابقه مع المقاومة الفلسطينية. فإن كان لا لزوم لهذه المرافعة برأي مَن يشاطرني قناعاتي، أو لا جدوى منها بالنسبة إلى أولئك الذين، على ما يبدو، لم يعودوا يفهمون الأمور إلّا من خلال طقطقة الرشاشات، فشعوري هو أن العدالة المستحَقّة للفلسطينيين لن تحققها أية مرافعة، بل سينتزعها من الضمير ـ أو غياب الضمير ـ العالمي الفلسطينيون بأنفسهم. قيل عن إيطاليا في بحثها عن وحدة وطنية: إن إيطاليا ستُنجزها بنفسها. وأقول الشيء نفسه بخصوص فلسطين: إن فلسطين ستكون بنفسها أو لا تكون.

3. حيث إني عدلت عن استجواب الضمير الديني أمام اختبار فلسطين، في خصوص العدالة، فإني سأبحث معكم عن بعض التوضيحات الفلسطينية وذلك على مستوى خيار ثلاثي الأبعاد، سياسي وديني ومسكوني. عندها وببعض من الدقة، ستحظى العدالة الفلسطينية علاوة على ذلك بنظرة شمولية، وسيتم إدراجها فيما أسماه لويس ماسينيون «جيوسياسية روحانية للعالم المعاصر».

مما يعني أن أذكر قناعة أخرى من قناعاتي الخاصة. لن يُحقق العدالة الفلسطينية إلّا الفلسطينيون أنفسهم فحسب، بل إنها لن تتم دون أن تساهم فلسطين في قلب الرؤى في الرأي العام الأوروبي والأميركي. ففي حضن العالم العربي، يواجه الفلسطينيون، من جهة،

المسألة الأكثر قدمًا وعسرًا في الضمير الغربي، ومن جهة أخرى، مسألتهم الأكثر معاصرة وانتشارًا. إن طليعة هذه المسائل المسألة اليهودية، أما الثانية، فهي مسألة العالم الثالث التي يمكن تسميتها أيضًا ودون تبسيط كبير مسألة الشعوب الملوّنة. غير أن فلسطين والعالم العربي يتمركزان، في جسدهما الحي، عند تقاطع هاتين المسألتين. لكن بعيدًا عن التقوقع في طلب المساعدة، وإن كانت الحاجة لها ماسّة، أظن أن مسؤولية تقديم هدية جميلة إلى جيلنا تقع على عاتقهما: إيجاد حل مناسب ومثالي للمسألة اليهودية، ورؤية أكثر صوابًا للشعوب التي يوحي نموّها بكابوس إلى الأمم الاستعمارية السابقة والجديدة، يُنظر إليه كامتداد للعالم الشيوعي أو من وجهة نظر ديموغرافية لا غير.

ـ 1 ـ

4. إن الخيار الأول الذي يقدّمه الاختبار الفلسطيني للضمير الديني، يُعرض علينا من خلال اعتراض.

قيل عن المسيحيين الذين تجمّعوا في المؤتمر العالمي للمسيحيين من أجل فلسطين: ما الذي يعنيهم في الأمر؟ ألا يقيمون خلطًا خطيرًا ويجلبون، بضمانة غير مستحقة للفلسطينيين، تعقيدًا إضافيًّا لمسألة معقدة إلى حدّ ما؟

إن المؤتمر العالمي للمسيحيين من أجل فلسطين الذي كان لنا شرف المساهمة فيه تكفّل، في الوقت والمكان المناسبين، بالردّ على هذه الاتهامات المبطّنة بالكاد. فيما يخصني، أكتفي بالملاحظات

التالية: أن تكون المسألة الفلسطينية معقدة إلى حد ما في الرأي العام الغربي، هذا ما نتفق عليه بسهولة. لكن لسنا نحن من يُعقّده، بل المسيحيون الذين، منذ نشوء الصهيونية وبخاصة منذ إرساء دولة إسرائيل، احترفوا تنمية الخلط من خلال تقديم الحجج التوراتية؛ وهم المسيحيون الذين، تحت غطاء النضال ضد معاداة السامية، أضفوا طابعًا رسوليًّا على الصهيونية السياسية، أي المشروع المتّسم بأعلى درجات التمييز العنصري اليهودي وبالسياسة العرقية ضد العرب؛ وهم المسيحيون الذين أصفهم باليهود المسيحيين الذين لا يزالون يجتهدون في روما وجنيف، لتعذّر تحقيقه في إسطنبول أو موسكو، في الفرض على الضمير المسيحي ليس الاعتراف بدولة إسرائيل من خلال الفاتيكان فقط، وإنّما كذلك الاعتراف بالطابع الديني لهذه الدولة من أجل اليهودية العالمية.

إزاء هذا الخلط بين الدنيوي والمقدّس، في إخضاع الدنيوي لمقدّسٍ فارغ من جوهره، وضدّ تبعية التفسير والإيمان غير المبررة للصهيونية، أظن أنه ليس من الحق فقط بل لهو واجب على المسيحيين الأُخر أن يُقيموا الفروق المستوجَبة؛ حيث إنه من واجبهم أن يُزيلوا العقبات السياسية والدينية التي غذّاها، بذكاء، في أوروبا وأميركا، اليهود المسيحيون لمصلحة الدولة اليهودية؛ فبدلاً من إخضاع الرأي العام الديني بإلزامه سياسةً متحزِّبة، يُلقي هؤلاء ضوءاً مختلفًا كليًّا، لاهوتيًّا ومسكونيًّا، يُنير مسألة جُرِّدت مقدَّمًا من وجهة النظر السياسية.

5. إذاً، فالجانب السياسي بالنسبة إلينا، أمام اختبار فلسطين، هو الخيار الأول. لكن إن صحّ القول، إن هذا الخيار حاضر في بالنا منذ فترة طويلة. في الواقع، إن أقصينا فترة الانتداب البريطاني، يمكننا أن نقول: إن الوجود المسيحي في فلسطين قد برز سياسيًّا في فترتين وبشكل متماثل. سواء كان ذلك في الفترة البيزنطية، من قسطنطين إلى هرقل، أو في فترة الإفرنج من سقوط القدس عام 1099 إلى سقوط عكا عام 1291، فإن الهيمنة السياسية للطوائف المسيحية على الأرض المقدسة قد برزت للأسف من خلال استبداد غيور، بل دموي، تجاه اليهود خلال الفترة الأولى، وتجاه اليهود والمسلمين في الفترة الثانية، بانتظار إخضاع مذلّ في الحالتين للسكان الأصليين الذي بقوا في الأرض المعروفة بالأرض المسيحية.

وبالتالي يجوز الآن أن نلاحظ أن هناك نوعين من الاحتلال السياسي اليهودي لفلسطين، وأنهما، على غرار الاحتلالين اللذين يدّعيان الانتماء للمسيحية، مستبدان ودمويان على السواء، بانتظار أن يكونا مستعبِدَين. إن احتلال أرض الميعاد كما وصفها الكتاب المقدس قد تمّ تحت شعار قانون معروف يفوق كل تصوّر، قانون إبادة الكنعانيين، الذي دام لغاية اليوم الذي أخضعت فيه سلطةٌ يهودية قصيرة المدى ملوك طوائف المنطقة، قبل أن يُزيلها معهم الهجوم الأشوري ثم البابلي ثم الغزو الروماني بعد ائتلافه مع المكابيين. فإن كان الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين لا يخضع جهراً لقوانين الكتاب المقدس نفسها

في التمييز والإبادة، فهو يستعيد في عزّ القرن العشرين العزيمة نفسها في الاحتلال الحصري والهيمنة. لكن دون أن تُعلن إسرائيل موقفها رسميًّا حيال الأرض التي تفترض الصهيونية في الشرق الأوسط أنها أرض يهودية، فقد أدركت ذلك بلدانُ منطقة الشرق الأوسط ومنذ زمن طويل. وسواء اقتصرت الدولة الصهيونية على الحدود التقليدية لفلسطين، بين البحر المتوسط ونهر الأردن، أو شملت النيل والفرات، فلا يمكنها الاستمرار إلّا بالتفرقة العنصرية والقوة العسكرية.

6. فما بين الاحتلال المسيحي والاحتلال اليهودي، يتميز الاحتلال الإسلامي الذي دام ثلاثة عشر قرنًا، وقد تمّ استبداله مؤقتاً بالإفرنج، بثلاث ميزات على الأقل:

أ. لقد تمّ الغزو الذي يُنسب إلى فرسان الصحراء دون قتال ودون سفك دماء السكان الأصليين، وذلك نتيجة التواطؤ الكبير الذي حصل بين هؤلاء السكان المسيحيين والقوات المسلمة. وبشهادة جميع المؤرخين المسيحيين المحليين، فقد استُقبل عرب الصحراء في فلسطين وسوريا وفيما بعد في مصر كمحررين خلّصوا المدن والقرى من النظام البيزنطي المكروه.

ب. لقد أدمج الفتح العربي فلسطين في عالم متجانس ومتباين في آن معًا، تطور فيه العربي الأصلي أكثر من المستعرب المنتمي إلى الحضارات التي تبنّاها الإسلام. ودون أن نتمكن من الحديث عن استعمار استيطاني، أو عن غزو استعماري، فإن التعريب المتدرج

لفلسطين في مشارف الشرق الأوسط هو عملية طبيعية تُكمل مع الإسلام حركة ابتدأت في فجر التاريخ. فالتعريب أحدثُ تعبيرٍ عن المصير السامي للهلال الخصيب، مصير أخصبته عوامل عديدة، من بينها الهيلانة والعروبة، وتبنّاه المسيحيون واليهود وكذلك المسلمون.

ج. في ظل النظام الإسلامي ولأول مرة، كان للمسيحيين واليهود الأصليين وجود مدني اعترُف به ليس كأفراد فقط بل كمجتمعات. إن المدينة الإسلامية هي المنظمة الدولية الأولى والوحيدة ذات الإلهام الديني التي اعترفت لغير المسلمين بوضع قانوني، في الوقت الذي تجاهلت فيه كلَّ ما هو غير مسيحي المدينةُ المسيحية القروسطية التي تشكّلت مع ذلك في أوروبا بعد ظهور الإسلام.

7. تُظهر هذه الملاحظات أنّ أتباع الديانات السماوية، في العملية التاريخية في الشرق الأوسط حيث تشارك فلسطين ، وهذا هو الآن الخيار الذي نتوجه إليه على المستوى السياسي ، لا يتموضعون بالطريقة نفسها. لذلك لا بدّ من إنصاف الإسلام على وجه الخصوص، والمجتمعات المسلمة مقارنة بالأنظمة والمجتمعات المتعصبة التي أرساها المسيحيون واليهود. وبالتالي، إذا ما قورنت بالديمقراطيات الحديثة التي أنجبت العلمانية تحت ضغط ثورات عديدة متتالية بين عامي 1789 و1917، فإن المدينة الإسلامية التي تتطور من جهتها قد تبدو اليوم رجعية. أي أن ننسى أنها تتبع مسارها الخاص بها وأن هذا المسار أكثر انفتاحًا في نقطة انطلاقه من نقطة وصول أكثر من مجتمع

يُدعى متقدمًا. أن يتمكن مسيحي بارز من دمشق من ارتقاء منصب وزير للمالية في ظل الخلافة الأموية أو أن يصبح يهودي بارز وزيرًا كذلك في الخلافة العباسية، كأن نتخيل فاليري جيسكار ديستان لهذه الحقيبة المالية في ظل الخزانة الشيوعية. أن نتفاجأ اليوم بوجود نفحة تعصب أو كره للأجانب في هذه الدولة الإسلامية أو تلك، أي ننسى أن غير المسلمين لا يزالون يُعاملون فيها بتسامح أكبر مما كان عليه البروتستانت حتى عهد قريب في إسبانيا الكاثوليكية، أو ما هم عليه الكاثوليكيون في إيرلندا الشمالية تحت رعاية ديمقراطية إنكلترا الكبيرة جدًا.

إلا أنه من الصحيح أن النظام القانوني للدولة الإسلامية قد ولّى عهده وأن المسلمين والمسيحيين واليهود أمام اختبار فلسطين قد وُضعوا في الوقت الراهن على قدم المساواة أمام الخيار السياسي الأكبر، خيار العلمانية. وهذا ما أعلنته الثورة الفلسطينية رسميًّا، بل هو برنامجها الأساسي: إقامة دولة جديدة في فلسطين قائمة على الديمقراطية والعلمانية والمساواة، تتمتع فيها الطوائف الدينية المعنية بأتباعها ومؤسساتها بالحقوق نفسها ، وتخضع للواجبات ذاتها.

نرى تاريخيًّا أهمية هذا الإعلان الرسمي وقيمته المثلى، وهذا ما دفعني لأقوم أعلاه بهذا العرض التاريخي.

ولقد أظهرته أيضًا في الحالة الخاصة المتعلقة بالقدس في إطار الأماكن المقدسة. ونحن أمام المدينة المقدسة في معركة مماثلة لتلك التي قام بها رجال غاريبالدي أمام أسوار روما. كان ذلك في نهاية

الصراع بين الكهنوت والإمبراطورية في أوروبا، مع نهاية الدولة البابوية البائدة. نحن في فلسطين، كما هو الأمر في سائر الشرق الأوسط، لا نزال في العصور الوسطى، على أهبة بلوغ العصور الجديدة. فإن تجاوزنا جميع الأنظمة الدينية، حتى وإن كانت الأكثر تسامحًا، وسعينا لإنجاح الجهود القديمة التي هزت الإمبراطورية العثمانية من أجل إيصال شعوب الشرق الأوسط إلى أنظمة الجنسيات الحديثة، فإن الثورة الفلسطينية، في قلب العالم العربي، هي طليعة تحركاته الحاسمة من أجل التحرر.

8. «مناورة دعائية»، يقول البعض، للفوز بتقدير الرأي العام الغربي. على افتراض أن الفلسطينيين صادقون، فإن برنامج المقاومة السياسي غير قابل للتطبيق في الشرق الأوسط. لم يكن هناك، في جميع الأحوال، أية ضمانة لليهود في مجتمع بأغلبية مسلمة.

هذا ما يؤكده عمليًّا جان ماري دوميناك في عدد شباط/ فبراير 1970 من مجلة «فكر»، متذرّعًا بشكل خاص بقضية الأقباط في مصر.

لن أجتهد هنا في الرد على دوميناك، فهذا يحتاج إلى محاضرة بحالها. على كل حال، لقد تحمّل جورج مونتارون هذا العناء وقدم له بعض الفروق المفيدة. وسأضيف عليها الملاحظات التالية:

بما أن جان ماري دوميناك يستدعي حالة الأقباط في مصر، أطلب منه بطيبة خاطر أن يسأل من بين هؤلاء، رجال الدين أو الدولة الذين يتعاملون مع النظام الناصري. فإذا كان، على الرغم من وجهة نظرهم،

يفضل التمسك بشعور بعض النزقين المعروفين أو أصحاب الحنين إلى مصر البالية العتيقة، أقول له حينئذٍ أي استنتاج ينبغي أن نستخلصه. فإن كان يريد إقامة دولة يهودية في فلسطين لأن المسيحيين لا يشعرون بالأمان في مجتمع مسلم، فلمَ لا نقيم دولة قبطية في مصر، ومارونية في لبنان، وكردية في العراق، وهكذا دواليك؟

إن كانت الدولة اليهودية تبرر وجودها كردٍّ على تعصب مزعوم في المجتمع العربي لأنه مسلم، ينبغي بالفعل حينئذٍ المطالبة ليس بصهينة فلسطين فقط، بل ببلقنة الشرق الأوسط بحاله، ليس على نمط الدول، بل وفق فسيفساء القوميات والأديان. وأنا أعرف، إن كان دومينيك يرفض مثل هذا الزيغان، أنّ هناك مَن تتلمذ في مدرسة إسرائيل يتطلع إليه بدم بارد. بل إني أعرف مناصرًا مزعومًا للحوار الإسلامي المسيحي يمضي وقته في ذمّ تعصب القومية العربية، ليغرز شويكتَين في الخاصرة المتوسطية للإسلام: دولة يهودية في فلسطين، ودولة مسيحية في لبنان.

إن دعاة هذه المدرسة كافة يقترحون الداء كدواء. وإذ نكون في الواقع أول من يعترف بوجود التمييز العنصري في الشرق الأوسط وأول من عاناه، فإننا نندد بشرّ أكيد وعيب قديم العهد نسعى، كما في أنحاء أوروبا وأميركا كافة، إلى الشفاء منه. لكننا لا نجعل من الداء أو العيب سياسة. غير أن التمييز العنصري الإسرائيلي الذي هو أساس إرساء دولة يهودية في فلسطين ارتقى إلى منصب سياسة، بانتظار أن

يؤسَّس لهذا التمييز العنصري بطابع قومي - ديني في أرجاء الشرق الأوسط كافة.

9. هذا الميل هو بالأحرى مثال لنموذج ثالث للحضور المسيحي في فلسطين وفي كل أنحاء الشرق الأوسط، كنت قد نسيت أن أذكره في عرضي التاريخي السابق، لأذكره بشكل أفضل في هذا السياق. في الواقع، إثر النظام البيزنطي، ثم الاحتلال الإفرنجي، كان في العصور الحديثة نظام عُرف بنظام الامتيازات الأجنبية اعترف من خلاله العثمانيون بحماية الأقليات المسيحية من بعض القوى العظمى الأوروبية. في الحقيقة، كان ذلك استبدالاً للحماية. انتقل المسيحيون من كفالة الذمة إلى كفالة القوى العظمى. قد يكون من غير اللائق من طرف ماروني أن يحتجّ، بعد فوات الأوان وانتهاء التعرّض للمخاطر، على هذه الحمائيّات القديمة العهد التي أمّنت لطائفته في الماضي منافع كثيرة وأرستها، حتى يومنا هذا، في علاقات مميزة مع فرنسا. أنطلق بالأحرى من هذه الذكريات الماضية والعزيزة عليّ وعلى أبناء طائفتي، عندما أصل إلى خاتمة هذا العرض.

لكن ما يعارض المعنى العميق لهذه الروابط المميزة وأهميتها الحقيقية التي ضمنت في ذلك العصر الحريات الأساسية، هو أن نجمّد في الوقت الحالي هذه الروابط في مؤسسات عفا عليها الزمن. إنّ إرساء دول بطابع عرقي أو ديني، كي لا أقول عنصري، في الشرق الأوسط وفي الوقت الراهن، لا يمكن له أن يتم دون ضلوع هذه الحمائيات

الماضية المولِّدة لأنظمة استعمارية أو انتدابية تعود إلى فترة كبارنا. لكن في الوقت الذي انتهى فيه الاستعمار والانتداب، نشهد، كما يبدو واضحًا كل يوم، الدولة اليهودية في فلسطين غير قادرة على الاستمرار دون ولاء لقوة عظمى تكون لها رأس جسر في الشرق الأوسط وحارساً أميناً لمؤسساتها؛ مما يجبر دول الشرق الأوسط الأخرى على الخضوع مقيدة اليدين والرجلين لقوة عظمى أخرى.

إن النظام الإسرائيلي في فلسطين هو في الواقع نسخة جديدة لصيغة هجينة زاوجت بين أقلية ذات طابع ديني يعود إلى عصر العثمانيين وبين ظاهرة الاستيطان الاستعماري من طراز الأقدام السود، في زمن الاستعمار الفرنسي للجزائر. أي، باختصار، استيطان استعماري من أصل أوروبي في البداية يستمر بقوة أميركا ضد إرادة مئة مليون عربي، مع هذا الفرق العظيم أن الأقدام السود أو الأقلية المحمية كان لها تأثير أقل بكثير على البلد الأم الحامي من تأثير إسرائيل على أميركا والصحافة والمال والناخبين والابتزاز في مسألة الإبادة الجماعية اليهودية.

10. إن كانت هذه الاعتبارات غير كافية لتوضيح كلام جان ماري دوميناك عن الدولة اليهودية التي يُبرّر وجودها في فلسطين بوجود مسيحي معرض للخطر في وادي النيل وغيرها من الأماكن في الشرق الأوسط، أضيف بشكل وجيز يختم هذا الطرح في الخيار السياسي المقترَح أمام اختبار فلسطين على المسلمين والمسيحيين واليهود:

إن كنتُ لا أزال أشعر كمسيحي بحاجة إلى الحماية في الشرق الأوسـط، فإني لن أناشد ما يسمى بالأمم المسيحية ولا الدولة اليهودية، بل أستنجد بضيافة الإسلام. بعد أكثر من ألف سنة من التاريخ، والخلاص من أحلك الخيبات التي مُنيتْ بها في بلادنا جميعُ الطوائف الدينية دون تمييز، أعتقد أننا قاسينا الكثير من غموض السياسات الأوروبية ومن ثم السياسات الأميركية، لنلوذ عند الحاجة وفي الظهر بمن يعتبره الكثير من أبناء طائفتي عدوًّا وراثيًّا، ولكن في لغة العقل والقلب أستنجد بأولى الطوائف ضيافة في العالم وأوسعها على الإطلاق.

ألتفت مع ذلك إلى الطائفة الإسلامية في محيطها العربي، وأتعرّف فيها إلى المحاورين العديدين الذين يدلّ عليهم في نظري ذكاؤهم السياسي وكرمهم معًا، فهم ليسوا حُماة يقدمون أنفسهم ردًّا على طلبي المسيحي، بل رفاقًا صادقين في معركة واحدة؛ تمامًا كاليهود الأحرار الذين لا يزالون، بالرغم من نفوذ الصهيونية وأوروبا وأميركا، يضعون في المرتبة الأولى كل أنواع الكفاح من أجل كرامة الإنسان؛ فمع هؤلاء المسلمين ننوي مواجهة التحدي ضد حرية اختيارنا السياسي في فلسطين من أجل العالم العربي بأسره. متأثرون كل التأثير بكل ما كدّسه الماضي من آلام في عروق كلٍّ منّا، على بيّنة من الأخطار التي يكوّمها الحاضر تحت خطانا، نريد أن نعالج تاريخًا طويلاً جدًّا من العبودية والحمائية بضرورة أملنا المشترك. لهذا، نواجه

ثلاثة أعداء واضحين هم حلفاء طبيعيون. هم الصهاينة في إسرائيل، وأنصار النظام الديني في الإسلام، وفي المسيحية أنصار الدولة الطائفية المنفصلة والمُحيّدة بالنسبة إلى العالم العربي بمشيئة القوى الغربية. هذه المجموعات الثلاث التي تشكل أعداءنا اللدودين على استعداد تام لإقامة نظام، كلٌ في محيطها الخاص بها، يُستبعَد فيه، أو يُستعبَد، على التوالي غير اليهودي وغير المسلم وغير المسيحي.

إذًا، لمواجهة هذا التحدي الذي تؤمّن له حاليًّا الدولة الصهيونية أضمن دعم، يجب أن يتم الخيار السياسي للمؤمنين: تعزيز ديمقراطية عادلة بأي ثمن كان، ضد كل أشكال الأنظمة الدينية في الأمس والأنظمة الاستعمارية اليوم، والاعتراف ضمن العلمانية بهذه المساواة الأساسية التي وهبها الخالق لا لعباده وإنما للبشر كافة، لتُقيم بينهم أسسًا أخوية لا يخلقها الإيمان فقط، بل يشجعها في الوضع البشري المشترك.

ـ 2 ـ

11. ننتقل الآن إلى الخيار الثاني الذي يُفرض علينا في اختبار فلسطين. بعدما استمعتم إليّ كما يجب بخصوص الخيار السياسي، سأعرض الآن بإيجاز الخيار اللاهوتي، ثم الخيار المسكوني بغرض أن أوضح فقط، بشكل جيد، هذه الرؤية العلمانية المستقلة التي اقترحتها منذ قليل. بعيدًا عن الخلط بين المخططات، يحضر دوماً في بالي اعتراض أولئك الذي يزعمون أننا ننثر المياه المباركة على الثورة الفلسطينية؛ علمًا أن جلّ هدفنا تعزيز استقلالها الذاتي في إطار

العلمانية، ونحرص من أجل تحقيق هذا على كشف، بإثارة غضب أصدقائنا اليهود ـ المسيحيين، حُلى الاقتباس التوراتية والرسولية التي يزينون بها إسرائيل ويرغبون بإظهارها لنا كالبطل الشاب في مسرحية عَثليا[1] الذي «يرتدي الصدق الساذج والكتان الأبيض». لذلك، أيًّا كانت أهمية هذا الموقف السياسي، فإن قوته تُقاس على أساس المراجعات التي سيُقيمها في قلب الفكر الديني.

في الواقع، إن الثورة التي تحصل في العالم العربي نتيجة للشوكة الإسرائيلية لن تؤخذ في الاعتبار في كل مداها إلا اليوم الذي يعيد فيه الغرب فهمه للكتاب المقدس في نقطتين رئيستين: طبيعة الله وسلوكه في التاريخ. في الحقيقة، لا تتجلّى طبيعة الله إلا في سلوكه التاريخي، وعلينا أن نندد معًا بما يسمى بالتأويلات التقليدية، حتى ولو سلطنا الضوء على تفسير مشكوك فيه بشكل خاص يتعلق بالخيار الإلهي.

12. لا تزال طبيعة الله تُقدَّم حتى اليوم، وستظل كذلك طويلاً على الأرجح، ليس تحت جوانب الجلالة والعظمة فقط، بل السلطة وحتى القوة الوحشية. ولا يزال المسيحي يتضرع وراء اليهودي إلى إله الجيوش، حتى عندما لا يفهم التعبير. هذا ما قال فيه شاب مسلم وفيلسوف ناشئ فقدناه في حادث سباق جبلي: «إله الجيوش؟ كم هذا صحيح، إن الله أعزل الكائنات»!.

غير أن هذا التلاعب بالألفاظ هو الذي لا يزال يتربص، في

(1) عَثليا، اسم مسرحية لراسين؛ واسم عثليا مستوحى من الكتاب المقدس.

المرحلة الفاصلة لأرض فلسطين المعذّبة، بالتفسير ليس المسيحي فقط بل اليهودي أيضًا. ولا يزال خادم أشعياء المعذب ينتظر أن يعترف به ليس عبدة الصليب فقط بل إسرائيل النبوية كمثال حقيقي بوجهه المخضب بالدماء ضد كل التصورات الدموية التي يتجرأ على إضفائها على ربه وضد كل المآثر الحربية التي لا يزال يمجد «معجزاتها» بلسان العديد من رجال الدين المبتهجين بنجاحها. في هذا الصدد، ينبغي أن تُحثّ احتفالات سيناء رجال الدين من كل الطوائف على التفكير أكثر بكثير من العروض العسكرية في القدس المحتلة، وربما يتوقف في نهاية المطاف صديقنا لورنتان من جريدة الفيغارو عن الحديث عن جدعون بخصوص موشى ديان. في جميع الأحوال، لقد أعرب الأب غوتييه عن رغبته في الإدلاء بشهادته أمام مؤتمر بيروت قائلاً: جئت إلى إسرائيل محبةً بالمسيح الناصري وإخوته، المجتمعين جسديًّا في بلده، ثم غادرتها وقدمت إلى مخيم اللاجئين والمقاومين الفلسطينيين، ليس لأني رأيت فيهم إخوة يسوع فقط، وإنما لأني أرفض، كإله لإسرائيل، إلهاً دمويًّا[1].

هل عقيدة هذه التشكيلة أو تلك من المقاومين الفلسطينيين هي أقلّ عنفًا؟ بالتأكيد لا، ولقد حرصت في الملف الفلسطيني الذي

(1) أنظر شهادة الأب غوتييه في وقائع المؤتمر العالمي للمسيحيين من أجل فلسطين.

وضعتُه تحت تصرفكم[1] على مناقشة بعض المظاهر من وجهة نظر دينية، بل حتى إني ناقشت مبدأ المقاومة المسلحة. لكن إضافة إلى وجوب التمييز هنا بين عنف النضال ضد الاضطهاد وبين العنف الذي تمارسه قوى الاحتلال، أقول: إن المقاومة المسلحة، حسب علمي، ما ادّعت يومًا الانتماء لإله ما في عالمنا المعاصر؛ لذلك أجد من المشين أن نتحدث عن العودة إلى الكتاب المقدس في فلسطين أو عن الدفاع عن الحضارة المسيحية في الفيتنام، باستحضار الفضائل المجتمعة لطائرات الفانتوم وقذائف النابالم. وهذا في حدّ ذاته جزء من الهوس العلماني للثورات في عالمنا الحالي الذي يحيل ظهرًا لظهر جميع آلهة الأديان القديمة الذين تتستر لحاهم الدمثة على الكثير من مجازر الأبرياء.

13. وبما أننا فتحنا فصل مجازر الأبرياء، اسمحوا لي، على سبيل الاستطراد، أن أعرض عليكم تأملاً، مهما كان مؤلمًا، بخصوص الحافلة المشهورة التي كانت تنقل تلامذة إسرائيليين ووقعت في كمين على الحدود. بالرغم من هول الجريمة أعترف أني في نهاية المطاف، كما هو الحال في مثل هذه الحالات، انزعجت من استغلال الحدث في إسرائيل وفي الخارج، علمًا أن منظمات المقاومة الرئيسية قد شجبت الهجوم، وأن إسرائيل استفادت من الظرف لتمطر، بلا اكتراث، على قرى جنوب لبنان رياح قصفها العاتية. ثم هل هي بالنسبة إلينا وسيلة

(1) أنظر «معطيات من أجل ملف فلسطيني».

للدفاع عن أنفسنا ضد الخطأ وللتخفيف من إحساسنا بالذنب؟ على كل حال، فإني لم أقوَ على عدم التفكير بالحدث والقول بواحد من أمرين: إما أن إسرائيل التي تعي دائمًا ما تفعل ولا تخطئ أبدًا، أليس صحيحًا هذا؟ تعتبر منطقة الحدود مع لبنان منطقة آمنة والدليل أنها تترك حافلة تلاميذ مدارس تسير دون خطر، لا يمكن أن تُهاجم إلا بهجوم مفاجئ؛ وإما أن إسرائيل التي تعي دائمًا ما تفعل ولا ترتكب خطأ أبدًا، لا عسكريًا ولا سياسيًا، تعتبر أن هذه المنطقة خطيرة بشكل خاص. وبالتالي، بأي مصادفة أو تصميم تترك حافلة أولاد تسير؟ هل نرى المصريين يتركون حافلات أولاد تسير على طول قناة السويس؟ في الوقت الذي يتم فيه إجلاء مدن بكاملها في قناة السويس وتضطر إسرائيل إلى اجتياز خمسة وأربعين كيلومترًا لتقصف أطفال بحر البقر (وتقول إنهم من مخيم عسكري)، هل من الممكن إذًا، لتلامذتها أن يتجوّلوا دون خطر على بعد أقلّ من كيلومترَين من حدود تعرف إسرائيل خير المعرفة أن الفدائيين يشنّون منها هجماتهم ليلاً ونهارًا؟ في ظل هذه الظروف، من هو المسؤول عن مجزرة الأبرياء؟ ولأي غرض تُتيح ارتكاب الجريمة؟

إن كنت لا أبحث من خلال هذه الأسئلة عن تبرئة صاحب هذا الهجوم الشنيع، مهما كانت الطريقة التي اتبعها لارتكابه، لأحمّل مسؤوليته الحقيقية لأسياد بلد لانزال نتساءل إن كان علينا أن نقدر مهارتهم أو نسخر منهم؛ إن الاتهام الذي يتضمنه سؤالي يذهب إلى

أبعد من ذلك. إن إسرائيل لا ترتكب خطأ أبدًا وعلينا أن نؤمن بذلك. بل علاوة على ذلك، لا يمكن النيل منها، بل تُوجّه إزاء ضربة واحدة سبع ضربات. فهي على صورة أسيادها، ماذا أقول؟ بل هي أفضل منهم ـ وهنا نستعيد حديثنا ـ هي على صورة إلّهها. فهو أكثر من إله محارب وربما دموي، لا بل هو إله منيع حصين يوجه ضرباته دومًا إلى المكان المناسب، فهو متوّج بالنجاح دوماً، لا تتلطخ يداه أبداً بالدماء.

وهكذا بعد أن نددت بإله الحرب والانتقام الذي نُخفي تحت ستاره إله القضاء والمغفرة، علينا أن نذهب إلى أبعد من هذا ونرفض الاعتراف بأنه إله الكتاب المقدس، آلة روبوت تُحييه التكنولوجيا من خيال العصور الوثنية، هذا الإله الذي يُفترض أنه يُزهر الصحارى ويقود أتباعه على مسارات الفعالية والنجاح محافظًا على يديه نظيفتَين.

14. وهو إله لا يدع في جميع الأحوال سوى أنصاره يسيرون في مساراته، وهنا الجانب الثاني والرئيسي للعمل الإلهي في التاريخ الذي تنبغي مراجعته ضمن قراءة دينية للعهد القديم.

فما هذا الاختيار لابنٍ مفضل من شأنه أن يجعل من الابن الآخر منبوذًا رجيمًا، وبغض النظر عما قاله القديس بولس في نفحة ربانية، ما هذه المحبة ليعقوب التي من شأنها أن تجعل عيسو مكروهاً؟ هل من مرة فكّرنا جديًا في هذه الأعراف البابوية التي يُقال عنها إلهية؟ أو تأمّلنا مع القديس بولس رسول انقضاء الشريعة أن الله الأب يُعزّ، في الابن الوحيد، كل إخوته كذلك وأنهم منذورون ليكونوا ورثة الميعاد؟

على أي حال، لقد وضع القرآن بشأن هذا الموضوع بيانًا قطعيًّا ليس ضد الاختيار الإلهي وإنما ضد التعسفية المنسوبة إلى الله وما يترتب عليها من تفرد، فتُصيب قومًا بفوائد وتجلب المصائب لقوم آخرين. لقد أعلن القرآن، على طريقة رسائل الرسول بولس إلى أهل رومية وغلاطية، أن كل أولئك الذين يدّعون الانتماء إلى دين إبراهيم يشاركونه في بركته وإرثه. وهذا هو جوهر القراءة القرآنية للكتاب المقدس، وإني أعتقد أن التفسير المسيحي، شأنه شأن التفسير اليهودي لكلمة الاختيار، لم يعطِ هذه القراءة حتى الآن ما تستحقه من اهتمام.

على ألّا يدفعنا هذا إلى تصحيح تأويل من الواضح أنه لا يمكن الدفاع عنه، بإعطاء الإسلام حصّة، من قبيل أنه من ذرية إسماعيل. أظن أني أظهرت، ولن أكفّ عن تكراره، أن الإسلام ليس إسماعيليًّا، بالمعنى الذي يُفيد أنه قد يطالب بجزء من الإرث. نيابة عن كل المنبوذين والمستبعدين، بسبب غيرة أولئك الذين يزعمون أنهم الشعب المختار، لقد أعاد القرآن، كليًّا، النظر في مسألة الانتخاب والميعاد والإرث ليمنحها دون أي تمييز لذرية إسحق وإسماعيل، ذرية عليها أن تتعارف، في إطار أمة واحدة، على أبوّة إبراهيم وشمولية الإله الواحد.

لذلك، من وجهة نظر الإسلام، ليس هناك تقاسم لا في الأرض ولا في الميعاد. ولذلك أيضًا، ضد كل أولئك الذين يريدون إعطاء فلسطين لإسرائيل باستبعاد إسماعيل إلى الصحراء (مع تأمين حصن

لبناني للمسيحيين)، فإن المعنى الإبراهيمي للإسلام هو الذي يلهم ويشجّع على فلسطين واحدة لا تتجزأ وأخوية.

- 3 -

15. هذا ما يُطلق عليه مبدأ المسكونية الإسلامي الذي أدخلنا بالفعل في القسم الثالث والأخير من هذا العرض. فبعد الاختيار السياسي والاختيار اللاهوتي المطروحَين على اليهود والمسيحيين والمسلمين في اختبار فلسطين، ها هو إذاً، الخيار المسكوني.

أن تكون فلسطين كأرض مقدسة الوطن الذي أنجبته المسكونية، ألا ينبغي أن يكون الأمر بديهيًّا؟ ومع هذا، فبأي مسكونية يتعلق الأمر؟

مما لا شك فيه أن المسكونية قد حققت إنجازاً رئيساً، أو أقلّه نبوءة ذات بعد هائل، عندما التقى البابا بولس السادس بالبطريرك أثيناغوراس الأول على جبل الزيتون. لكن لماذا التقى هذان الرجلان المتعطشان للوحدة في هذا المكان؟ التسوية خلاف عائلي قديم العهد بين الكنيسة اللاتينية والكنيسة البيزنطية والاتفاق، كمثال نموذجي، على ترميم القبر المقدس، كبيت العائلة القديم للمسيحية المتصالحة؟ أيًّا يكن عمق الانقسامات بين فرق الكنيسة القديمة وشرّ مظاهر نزاعاتها التي بدت حتى عهد قريب في القدس، مركز المسيحية الروحي، فإن ما يعطينا فكرة صغيرة عن دور المسكونية هو تسخيرها في مسعى للتهدئة أو حتى للمصالحة بين السلطات المهيمنة الهرمية التي نادت بها في الماضي كنيسة روما القديمة أو الجديدة أو كنيسة روما الثالثة.

لكن لا يبدو أن الإلهام العميق للمسكونية سيتحقق عندما يشمل مسعى التهدئة والمصالحة الخلافات الحديثة للغرب المسيحي. فبعد تحقيق الاتفاق بين الكنيستين البيزنطية والرومانية، هل تنجح المسكونية أكثر في تضميد الجراحات الحادّة والأحدث عهدًا التي كبّدها الكاثوليك والبروتستانت لبعضهم بعضاً؟ وحيث أن هذا المسعى مفيد وضروري وميمون، فإن لم نكلّف أنفسنا عناء التوقف عنده، قد يستسلم العالم المسيحي، في الوقت الذي يشعر فيه أن غربته تزداد في عالم يرفضه ويتجاهله، لنوع من الاستبطان والتساهل إزاء نفسه، كما تفعل العائلات الأرستقراطية القديمة التي لم تتمكن من الاندماج في العالم العصري، فتقتصر في الأوقات العصيبة على كبريائها وقدمها، وتعزي النفس بإعادة بناء شجرة العائلة.

16. وعلى قدر ما يبدو غريبًا في الوهلة الأولى، فإن رصف المسكونية على نسق اليهودية التي يحاول مروّجوها تطبيقه بأي ثمن كان، بدلاً من أن يعطي للمسيحية القديمة المتعطشة للتجديد انفتاحًا على العالم الخارجي، لم يؤدِّ إلّا إلى انغلاقها في عُقَدها البالية وفي الدائرة الضيقة لسوء ضميرها الغربي.

ينبغي علينا أن نكتب هنا تاريخ الحركة المسكونية في السنوات الأخيرة وتحديد وطأة الأثر الذي تركه عليها ليس مطران من ضواحي باريس أو قسّ بروتستنتي متهود من مشارف الشرق الأوروبي يصرّ على الاشتهار بأنه مجمعي، وإنما أثر اثنان من عظماء ألمانيا وهما

كارل بارت (Karl Barth) في البروتستانتية والكاردينال بيا (Béa) في الكاثوليكية. لذلك، أيًا كانت أهمية نتاج الأول في اللاهوت والآخر في مجال التفسير، فإن تأثيرهما الذي عُرف بأهميته وفائدته في التيار المسكوني ومؤسساته لم يستطع دومًا تحاشي طبع الكنيسة الغربية بطابع الحدود الضيقة، والأبعاد المأسوية في الوقت نفسه، للضمير الألماني الذي يشعر بالذنب بعد انتهاء الحرب.

وهذا ما يفسر، على هامش الكثير من التقدم، انحصار جزء من التفسير في نوع من الأصولية التوراتية، وتصهْيُن - وإني أجرؤ على استخدام الكلمة - مبطّن بالكاد لعدد من رجال الكنيسة في روما وجنيف.

وبالتالي، بعيدًا عن أن نتلاقى هنا على المستوى السياسي وحده، أعتبر أنه المأزق الأساسي للمسكونية، بحكم تغلغل هذه الأصولية في الضمير الغربي، والمحاولة التي قام بها هذا الضمير ليس كوسيلة لعلاج نفسه منها أو تجاوز عقده بقدر ما كانت لفرض نفسه على الضمير المسيحي برمته بمقتضى العدد والوسائل المادية. وإني أستدعي ظاهرة واحدة بسيطة. عندما يُوجَّه انتباه الشعب المسيحي باتجاه الأرض المقدسة من وجهة النظر الفولكلورية أو الخاصة بعلم الآثار فقط، فإن التأثير الذي يُمارس على هذا الشعب لم يعد في نهاية المطاف أوروبيًا، وإنما أميركي. ففي المسيحية الأميركية في الواقع، كاثوليكية كانت أم بروتستانتية، تتجلّى أكثر أصوليةٌ توراتية بدائية،

وحبٌ للسامية يعارض كليًّا معاداة السامية، ولكنه على المنوال نفسه، وعبادة للنجاح إن لم يكن لانتصار المسيحية التي كبادت في مكان آخر الكثير من خيبات الأمل.

17. ينبغي على جمهور المسيحيين القليل العدد الذي نمثله في المشرق ألا يخطئ، وأن يحاول، دون أن ننهي التزامنا بالحركة المسكونية، تجنّب المأزق الغربي الذي يُزجّ فيه الشعب المسيحي.

وينبغي علينا القيام به بتوجيه اهتمامنا نحو اتجاهَين مقترنَيْن:

يكون الاتجاه الأول في تجاوز الخلافات بين الكاثوليك والبروتستانت؛ وفي المشرق تحديدًا، يتجلّى في تجاوز العداء القديم بين اللاتيني والبيزنطي. في الواقع، هناك مسيحيون في الشرق غير متحدين بكنيسة روما أو أرثوذكس يخضعون لبيزنطة. ففي بطريركية أنطاكيا كما في بطريركية الإسكندرية، هناك كل هذه الطوائف المسيحية التي عبثاً اشهرت رومانيتها أكانت بيزنطية الهوى أو لاتينية، لكنها مع ذلك لا تزال بذور الإنجيل المتواضعة على ثغور الإمبراطورية، بل هي عمليًّا خارج المسيحية التي تقرع نواقيسها دقات نهايتها.

وفي حين أن تشعّبات كنيسة الإسكندرية بلغت أثيوبيا وحتى قلب إفريقيا، فإن الكنيسة الأنطاكية تمتد من بلاد ما بين النهرين والخليج الفارسي إلى ضفاف البحر الأبيض المتوسط؛ مما يقع تمامًا في زاوية الانفتاح لهذين الاتجاهين اللذين تشكل القدس بينهما منصف الزاوية، المنفذ الواضح والصريح على العالم الإفريقي الآسيوي.

بالتالي، إن الاهتمام والتوجّه اللذين تودّ كنائس الشرق الرسولية

المتواضعة أن تتبعهما الكنيسة برمتها في أعقاب العالم الثالث يتطابقان تمامًا مع امتداد العالم الإسلامي. سواء شكّلا منفذًا لزاوية يتطابق فيها منصف القدس مع منصف مكة، أو هلالاً شاسعًا يمتد من خليج موزمبيق إلى إندونيسيا، يأخذ في امتداده القارة الإفريقية برمتها والعالم التركي والإيراني وآسيا الوسطى وسينكيانج؛ فمع كل هذه الصورة الكوكبية يشعر مسيحيو الشرق الأوسط بالتضامن، آملين أن تعتبرها الأغلبية المسيحية الأخرى في أوروبا وأمريكا ليس كميدان للفتح التبشيري وإنما كالإيقاع الحقيقي للفكر المسكوني. حينذاك، يقوم هؤلاء المسيحيون بتصحيح ضيق بل شوفينية انطوائهم على الغرب وحده، فيرفضون إقامة رأس جسر إقليمي في فلسطين والمصادقة على كل شكل من أشكال التقسيم يكرّس الصراعات بين الأشقاء، بل يساهمون في تعزيز أخوة جديدة بين المسلمين واليهود المتصالحين، ليبرز في أعالي القدس هذا النجم الملكي الذي يطلع في الشرق من فوق ليل الشعوب.

أيها الأصدقاء الأعزاء، لقد انتهيت وآن الأوان أن تستمعوا إلى مَن شمل هذا العرض الذي قدّمتُه بكثير من الصبر والصداقة والنفوذ على السواء[1].

---

(1) المقصود هنا المطران جورج خضر، مطران الروم الأرثوذكس في جبل لبنان.

ومع هذا، فإني أطلب منه ومنكم أن تتحملوني أيضًا لوقت قليل لأقوم ببعض من الاستطراد في موضوع الخطاب العربي الفرنسي وأقدمه كعربون تقدير للتضامن الذي وفّر لنا فرصة اللقاء هذا المساء.

كان من الممكن في الماضي أن أنتهج بسهولة أكبر لغة فرنسية لبنانية وهذا ما يتيسر فهمه. كما تعلمون، بين انتمائي كلبناني وبين فرنسا حكاية قديمة العهد أشرت إليها خلال عرضي، في يوم مشكوك فيه ولسبب وجيه. في الواقع، هي علاقة حبّ قديمة شهدت ولا تزال تشهد كل المراحل، أي العشق والتعب، والإحباط والغضب، والتلاقي والخيانة، وقبل كل شيء هذا الضوء المشعّ الذي يتلاقى في ظله دومًا العشّاق كأصدقاء قدامى.

وكمثال على هذا، أود أن أذكر أمامكم أن حزيران/ يونيو 1940 (لقد مضى عليه هذه السنة ثلاثون عامًا) كان بالنسبة إلى أبناء بلدي بمثابة حداد عائلي؛ وأن في الخامس والعشرين من عام 1944، كاد الإعلان عن تحرير باريس يُشعل جبل لبنان بكامله كشعلة يدفع بها إلى البحر كنار الإبتهاج.

وأقصد القول إن اللبناني الذي اتسمت طفولته وشبابه بارتباط كهذا، والذي تربّى على أن فرنسا موطنه الثاني، يُصعق عندما يرى في مرحلة البلوغ سقوط القدس في ليل حزيران/ يونيو 1967، وأن في الحي اللاتيني وفي الوقت نفسه يتم تنظيم عملية مطاردة العربي.

صحيح أن هذا اللبناني لم ينتظر حزيران/ يونيو 1967 ليسمع عن

مطاردة العربي في باريس دون أن يفهم. خلال كل فترة الاضطرابات في الجزائر الفرنسية، كان التساؤل نفسه يلاحقني، دون أن ننسى أزمة قناة السويس والمحاولة اليائسة منذ ذلك الحين للبحث عن لغة ليست فرنسية ـ لبنانية، لا بل فرنسية ـ عربية، أي، فيما يخصنا، لغة نتفاهم من خلالها مع الفرنسيين ويتعرّفون فيها إلى مصير فرنسا الحقيقي.

مع هذا، لم يكن من الصعب العثور على هذه اللغة، وإني أدرك جيدًا العبارات الفرنسية العربية التي يمكننا الاستعانة بها في هذا الوقت، إذا توافرت لي جلسة استماع ما ليفهمني الكثير من الفرنسيين، كي لا أقول أغلبهم. يُدهشني في الواقع أن الحكومة الحالية التي صرفت النظر عن السموّ إلى الأسلوب الفريد في نوعه لمؤسس الجمهورية الخامسة، لا تبرر بوضوح سياستها المعروفة بالمتوسطية وتقول بصراحة: ماذا إذًا ! تريدون أن نتخلى عن مئة مليون عربي لأجل عيون الأمريكيين والإسرائيليين ونقدّمهم هدية للروس، وعن ثروة لا تنضب من اليد العاملة الرخيصة وعن آبار نفط لن تنضب، وعن السوق الأكثر أمانًا لبيع طائراتنا؟

وإذ تحاشيت ذكر طائرات الميراج، فهذا لا يعنى أني أخشى الحديث في هذا المجال، فكلّ منّا يستعين باللغة القادر على فهمها. ولكن لأني أخشى إثارة ضجة قوية في صحف باريس وغيرها من المحافظات من شأنها أن تؤجج النفاق وتمنعني حينها من إيصال بقية خطابي الفرنسي العربي إلى فرنسيين أُخر قادرين، هم، على استيعابه.

لندع إذاً، طائرات الميراج تأخذ نحو الصحراء وفي الوقت المناسب طريقًا لبقة تحذو حذو السفن الحربية في ميناء شيربورغ. أذكّر أن من بين جميع الصناعات الفرنسية، لم ينشأ أنبلها في فرنسا، بل في منطقتنا. في الواقع، لقد نشأت هذه الصناعة النبيلة في بلدَين، الأول إفريقي والثاني عربي، لكنّ كلاً منهما مسلم: وهي الفرانكفونية.

يمكننا حقًّا الاعتقاد أن الفرانكفونية هي أكثر من مجرد نداء لحشد التأييد مع الكيبيك الحرة. إن الفرانكفونية تليق لأذن كل من يفكر في هذا العالم، وخطابها ضروري في جميع الأحوال في قلب إفريقيا لإبطال مفعول الطابع المهيمن حتمًا والموازن للقوة الأنجلو-أميركية. إلا أن العالم العربي هو مرة أخرى من يؤلِّف، حول طبلة الرنين العالمية التي يمثلها البحر الأبيض المتوسط، الأغاني والأصوات التي ينتظرها العالم ليردد صداها.

مع العالم العربي، ندرك فعلاً المصير الحقيقي للغة، أي للثقافة، أي للفكر الفرنسي. هذا لا يعني أن نقولب الكون على صورته، وإنما أن نعترف، كلّ ضمن لغته، بالصورة التي تمثله. لذلك، كما كان يقول ليوبولد سنغور (Léopold Senghor) بخصوص الزنوجة والعروبة، بين العروبة والفرانكفونية دعوة ضرورية لتعزيز متبادل. إن تعلّم اللغة الإنكليزية في وقتنا الحالي هو، شئنا أم أبينا، النزول إلى مستوى التفاهة، أي حضارة الكوكاكولا والسندويش، في حين أن تعلّم الفرنسية هو

التميّز بالتأهيل وكأننا جزء من هذا الوطن الروحي الذي يعرف ثلاثمئة نوع من الأجبان، ناهيك عن أنواع النبيذ التي لا تقلّ عدداً.

لكن كي لا أودعكم فيما يتعلق بالشأن الفرنسي العربي بكلام يمكن استخدامه شعارًا للتحالف الفرنسي (l'Alliance Française) أو إدماجه في خطاب جاك شابان-دلماس (Jacques Chaban-Delmas)، سأحاول تحديد مستوى لغة خطابنا المشتركة الأخيرة باستحضار خطاب جاك بيرك الذي يقترحه في كتابه «شرق ثان».

ولأن الوقت لم يتح لي فرصة قراءة الكتاب، لم أفهم، من خلال تحليل الكتاب الذي قدمه جان ماري دوميناك في جريدة الـ «لوموند»، مغزى العنوان ولا سبب تسمية هذا الشرق بالثاني. لكن ما هو مؤكد بالنسبة إلى بيرك هو أن هذا الشرق الثاني ليس ثانويًّا، بل هو الوجه الآخر الذي يشكل بالنسبة إليّ كل الفرق الذي بدونه لا أستطيع أن أكون ما عليه. فذلك هو مغزى العلاقة الفرنسية العربية وأهميتها القصوى، سواء كانت لغة أو حوارًا أو تضامنًا.

فهي تستند إلى تمثيل بسيط جدًّا. يشتمل الشرق العربي تقليديًّا على واحد في المئة من اليهود وعشرة في المئة من المسيحيين وما تبقى هم مسلمون يشكلون أكثر من عشرة في المئة من العالم الإسلامي الذي يشكل بدوره ثلث العالم الثالث. ها هو ذا التمثيل المبسّط الضروري على الإطلاق للتفاهم وفي قلب الفرنسيين الذين أتقاسم

معهم لغة واحدة: إن الشرق العربي هو هذه الشواطئ الشاسعة من الرمال والشمس، تُسمى مناطقه الداخلية بالعالم الثالث.

لقد عاشه رجلان وعبّرا عنه لجيلنا على خير وجه. أذكّر أولاً أن شارل دو فوكو، في الوقت الذي كان يُنظر إليه في المغرب على أنه ليس سوى كافر، قد اضطر للتنكر بزي حاخام. ماذا يعني هذا بالنسبة إلى حديث اليوم؟ أي إنه عندما لم يكن من المستحسن لشخص غريب، وذلك قبل الحماية بوقت طويل، المغامرة في المملكة المغربية، كانت أسلم طريقة للتفرغ لأبحاثه التخفي تحت هوية يهودية. فليسمع مَن له أذن.

لكن عندما أصبح شارل دو فوكو مؤمنًا اتبع طرقًا أخرى ليتعرّف إلى ضرورة التعايش بين المسلمين والمسيحيين واليهود في أرجاء حوض البحر الأبيض المتوسط كافة. ففي فلسطين، في الواقع وكبستاني متواضع في الناصرة تعلّم كيف يصبح أخًا ليسوع، ثم عاد إلى عزلة الجبال الصحراوية في المغرب مما أتاح له بفضل الاحتكاك بأكثر القبائل الإسلامية تواضعاً أن يتعلّم كيف يصبح أخًا عالميًّا.

وكان قد طلب من لويس ماسينيون أن يلحقه إلى هناك في تمنراست وأن يأخذ مكانه عند وفاته. إلا أن لويس ماسينيون فضّل أن يستقصي بطرق أخرى الإدراك نفسه والضرورة السياسية والروحية والمسكونية ذاتها التي يحتاج إليها فرنسي من هذا الشرق الثاني. فلم يكلّ من الانتقال بين فاس وبغداد، أو بين القاهرة والقدس، ولم ينسَ

عند سفح صليب يسوع مشنقة الحلاج. هذا الرجل الذي كان ضدّ كل أشكال التميز والظلم، ومع التعاطف العالمي وعزّة فرنسا، أراد أن تتخذ بلاده هذه اللغة الأساسية: ولاء لا يتزعزع لفرنسا تجاه سياستها الإسلامية، واتحاد وثيق بين الثقافتين العربية والفرنسية على ضفتي البحر المتوسط، والتصالح بين المسلمين والمسيحيين واليهود على قدم المساواة، وتحت حماية النبي إبراهيم في القدس من أجل فجر عهد جديد.

عن احتلال القدس[1]

إلى جيرمان تيون[2] (Germaine Tillon).

لست وكيل نشر وإعلانات ولا حكماً غير منحاز. لا أكتب مقالات للصحف، وأنبذ كل أشكال التصريحات العامة. غريب في بلد مضياف، ليس من حقي أن أرفع الصوت عالياً. أستشهد بأساتذتي وأصدقائي لا غير، فضلاً عن أنهم عزيزون بقدر ما هم نادرون. أستودعهم خواطري وآلامي، بالتناوب ودون تردد أو تصنّع.

ليس لي أن أكون مناصراً لليهودية، كما أني لست مناصراً للعروبة. مسيحيٌ من مسيحيي الشرق، متحدر من أمة عانت من مقاومتها

---

(1) خماسية إسلامية مسيحية، المجلد الخامس، ص 21-37.

(2) هي مناضلة فرنسية قاومت الاحتلال النازي في الحرب العالمية الثانية، فعرفت السجون النازية مع أمها إيميلي التي توفيت في معسكرات الموت النازية.

القديمة العهد والصلبة للإسلام لتكون في نهاية المطاف وحدها التي تحاول إلى جانبه تعايشاً صعباً وإنما مثالي من جميع الوجوه داخل لبنان موحد. باسم روابط التبني التي تربطني كماروني ولبناني بالعالم العربي، تبنٍ رضخت له أولاً ثم قبلته فيما بعد بشغف، أعاني اليوم مع عالمي العربي هذا من أشد الإهانات خطورة.

من بين هؤلاء الشهود المميزين والأصدقاء النادرين (سأذكر لاحقاً السبب) الذين أتوجه إليهم، ألتجئ بشكل خاص إليكِ، يا عزيزتي جيرمان تيون، وذلك لسببين: أولاً، لتعذر التوجه إلى الراهبات المهانات الموجودات على ضفاف نهر النيل أو الفرات أو بردى أو ضفتي نهر الأردن الذي يجرف إلى حفرة الموت الدم والعار. أظن أن لويس ماسينيون قد لاذ مؤكداً بعطفك ولجأ إلى رزانتك ليخفي غضبه وخجله وخيبة أمله.

أتوجه إليكِ كذلك بسبب مجاهدي الأوراس. فإنهم اليوم، في هذا الجو من التهرب العام والنفاق العالمي، سلواي واعتزازي. وكنتِ أنت، يا عزيزتي جيرمان تيون، أول من تفهّم مواقف هؤلاء المجاهدين وأحبهم، فلم تيأسي يوماً من أن تظهري لأيتام الإسلام، هؤلاء المستضعفين كما كان يسميهم أستاذنا وصديقنا، هؤلاء المضطهَدين والمهانين، المقاومين حتى الجنون، وجهاً فرنسياً جديراً بإنسانيتهم النبيلة جداً والمثيرة للشفقة.

ومع أني أخصكِ من بين مجموعة شهود التكريم، فإني أتوجه

إلى الله وحده، لأني أظنه وحده القادر على تحمل عنف كلامي عن العنف الذي أصابنا. لكني لاأزال أفكر بك وأنا أسقط عليك ما لا يطاق من معسكرات الموت الهتلرية التي لم يرجع منها أعزّ من كان لديك في هذا العالم. ولأني أعرفك قادرة في نهاية الأمر على دعم عنفنا، وهو أخيراً السبب الرئيس الذي أتكلم من أجله وأنا أفكر بشكل خاص فيك.

قلته إذاً، وأعيده. إن الاحتلال الصهيوني للقدس يؤلم مسيحيي الشرق، كما كان يؤلم هؤلاء المسيحيين أنفسهم الاحتلالُ النازي لباريس في حزيران/ يونيو عام 1940. في الواقع، لقد تجاوزنا مرحلة الأسف والاحتجاج على اغتصاب وطن انتُزع بالذهب والدم من مليون لاجئ عربي. فهو، اليوم، الظلم الأعظم، بل أضيف: إن احتلال القدس هو بالنسبة إلينا وللمسلمين تحدٍ لا يطاق، وسيوضع له حد بكل السبل.

كل الحرية لليهود المؤمنين في مسامحة الصهيونية على فظاعة استردادها حائط المبكى بنيران الاعتداء الأكثر وقاحة، وإيهام فقراء أدوناي[1] أنه انتصار لـ «إله الجيوش»، فالأمر يتعلق بضميرهم حصراً. والحرية كذلك لحاخام التكتلات التي شكلها الإرجون في طلب النفخ في الشوفار[2] تكريماً لموشيه ديان، وفي السماح لليفي أشكول ودافيد

(1) من أسماء الله عند اليهود وهو ملقب بإله الجيوش.

(2) الشوفار من أدوات الطقس اليهودية تشبه قرن الكبش يُنفخ فيه في مناسبات معينة مثل عيد رأس السنة العبرية أو عيد الغفران وما شابه.

بن غوريون أن يفاخروا، وأمام المصورين، بأعمال تقوى قلما اكترثوا بها حتى ذلك الحين. فإن كان هذا يستوفي الرجاء المخلص للشعب المختار، فذلك يجعلنا على بينة من مقداره. وإن كان يقدم لنا صورة ما عن هذا الرجاء، فذلك يُطلعنا على مزيته.

إلا أن احتجاج النبي العربي ضد عناد شعب إسرائيل، وضد المسيحيين كذلك، لا يُقهَر حتى آخر يوم، فلقد وقّع العلم الإسرائيلي المرفوع في ساحة قبة الصخراء وعلى المسجد الأقصى على قرار إعدام الصهيونية في قلب الإسلام الجريح.

فاحتجاجنا الساخط مستمر لا يفتر، ومرارتنا لم تخفّ في ركود هذه الأيام المظلمة. لقد لُمنا أصدقاءنا الليبراليين في فرنسا في هذا الشأن، ولومنا لا يزال قائماً، بل نجده في عبارات الدعاية السوفياتية. فعندما انحزتم، على مرأى من العالم، إلى غنمة مُعدّة للذبح، رأيتم الذئب يخرج من الغابة ليسيطر على البلد. وكنا نفضل ألف مرة لو أنه سرق ودمر وقتل. إذ إن غطرسته الثابتة التي يظهرها كغازٍ مجتاح مليء بالعزم والتصميم تؤلمنا أكثر من أي شيء آخر.

ومع هذا، فبالنسبة إلينا، لن نستسلم لا لدعاية البعض المنتفعة ولا للابتزاز الغوغائي للبعض الآخر. فالفئة اليهودية التي اختارت الانطواء تحت سيطرة لواء الصهيونية ليست ذئباً ولا حملاً. في هذه الحالة، لا تزال كبش الفداء لما يسمى بالأمم المسيحية، تماماً كما أن الشعب اليهودي بأسره هو الضحية والشاهد على الظلم العالمي والجريمة،

كمذابح روسيا وبولندا، وقضية دريفوس في فرنسا، والإبادة الجماعية النازية في ألمانيا الهتلرية التي، في انتهاك كل المفاهيم التحررية وتحت قيادة أمة معروفة على هذه الجهة من نهر المانش ببياض يديها ومنحدراتها، دفعت شعب إسرائيل كما في الماضي عزازيل إلى الصحراء العربية، ليس لخلاصه وإنما للتخلص منه ولهلاكه، ولمواصلة التدخل من حين لآخر بفضله في عالم يسعى حثيثاً إلى تحرره بعد قرون من الإقطاعية والإمبريالية الاستعمارية.

عار كذلك على سلاح الجو الملكي الذي دمر عام 1956 سلاح الجو المصري على الأرض. وعار على مظليي غي موليه (Guy Mollet) الذين غطوا تدخلهم بمدرعات موشيه ديان، ليثأروا من فلاقة الجزائر على حساب فلاحي مصر. لكن الاتحاد السوفياتي تدخل وهدد، فطُردوا جميعهم من مصر، في حين أن أمريكا الفاضلة انضمت إلى هذا التحرير الغامض لتحتل مكانة القوى الاستعمارية البائدة. في الواقع، لم تتمكن أمريكا في غضون عشر سنين سوى اكتساب دعم القوة العسكرية الوحيدة في الشرق الأوسط، وهي إسرائيل، إلى اليوم الذي قامت فيه وكالة الاستخبارات الأميركية التي قررت خنق الأنظمة التقدمية في العالم العربي، بعدما خنقت الديمقراطية في اليونان، إلى جانب حكومة الولايات المتحدة الأميركية، في أعقاب العدوان الإسرائيلي، باعتراف حياد بـ «الفكر والقول والفعل»، وهو نفاق لا يضاهيه، في إحساسي المتواضع كرجل دين، سوى التقوى الظاهرة.

لكن أصابع الله التي خلطت دوماً في القصاص الأبرياء بالمذنبين (أنظر حريق بازار الصدقة، Bazar de la charité)، لليون بلوى (Léon Bloy) سمحت «خطأً» للإسرائيليين أن يُخرجوا من القتال أكثر من مئة ضحية، ما بين قتيل وجريح، بنسف وحدة تابعة للأسطول السادس التي كانت راسية، «بطريق الصدفة»، على بعد خمسة عشر ميلاً قبالة الساحل المصري.

قبل ذلك، قامت الطائرات الإسرائيلية المتوقعة من الجانب الشرقي أو الجانب الشمالي بالهجوم من الجانب الليبي منذ فجر العدوان لتدمر مرة أخرى، وبأقل من ثلاث ساعات سلاح الجو المصري على الأرض، إلا أن هذه المرة على نحو أكثر فعالية من سلاح الجو الملكي (لكن دوماً دون مساعدته؟). عار على الصحافة التي أغفلت عنها ذلك الصباح، ولم تعد النظر في احتقارها المنحاز! صحيفة الـ «لوموند» فقط تجرأت وقالت - ولكن بين خطين صغيرين - إن الادعاء الإسرائيلي بالعدوان المصري مشكوك فيه الآن. يا لمثالية هذا التجرد المعتدل! ويا لها من فرضية جريئة!

فمن بين جميع الأمم الغنية التي تكتلت مع إسرائيل ضد الشعور المشترك بين الكتلة الشيوعية والعالم الثالث، فرنسا وحدها، ماذا أقول؟ فرنسي واحد أسمع صوت العدل والعقل. إذ إن أصواتكم، أيها الأساتذة الأعزاء والأصدقاء، خُنقت حينذاك في الصخب العام، في الوقت الذي أُكره فيه بعضكم شفقة بالشعب اليهودي المهدد بإبادة

جماعية مزعومة، في حين أن الأمر لم يكن سوى دولة إسرائيلية متأهبة للركل ومستمرة دوماً في إظهار أنيابها. باستثناء الحزب الشيوعي الذي أدرج شهادته في إطار تأدية الطاعة لموسكو، بدا أن فرنسا برمتها تقوم كرجل واحد، ابتداءً بدنيال مايير (Daniel Mayer) وانتهاءً بتيكسييه فينانكور (Tixier-Vignancour)، مروراً بالذين لم يعترفوا بأخطائهم في قضية قناة السويس، وبالنزيه لوكنويه (Lecanuet)، تُثيره من جهة زمامير الجزائر الفرنسية (آه، جواب جاك سوستيل لجاك برك)، ومن جهة أخرى (ألم يكونوا أحياناً الرجال أنفسهم) رأي يهودي عام شجعته إلى أقصى حدود الحماسة عناصرُ الصهيونية التي جعلت مقرها العام في فاغرام (Wagram) قبل نزولها الشانزليزيه. يا لروتشيلد الذي اقترح بيع مزارعكم لمصلحة إسرائيل الفقيرة، لكنه اكتفى بالتصريح عن نيته هذه! يا لدنيال مايير الذي تثنى كمراهق أمام الإنذار الهادئ لجاك بيرك بعينه، بهدف دراسة القضية في جوهرها، خانقاً صوت اليهود الليبراليين والأرثوذكس، من رجال دين وجامعيين، الذين قاموا ببعض التمييز المفيد بين قضية الشعب اليهودي والتحيز غير المشروط لمصلحة إسرائيل!

رجل واحد إذاً، قام ضد الجميع ونأمل ألا يكون ذلك قد وقّع ضد شخصه حكماً جديداً بالإعدام أكثر رهبة من حكم الإعدام الذي أصدرته منظمة الجيش السري (OAS). إذ إننا نتكل على عزمه وعليه وحده عملياً لمواصلة واستكمال ما قاله حينذاك: أياً كانت

المظالم، والأخطاء والحقوق، أياً كانت التهديدات والمساومات، أياً كانت الصداقات والتحالفات، ولكن للإنصاف، وإن لزم الأمر ضد التحالفات والصداقات، كان علينا أن نتمالك أعصابنا، وأن يبقى كل واحد على موقفه، وأن نعالج القضية بمجملها وجوهرها. وعندما قطعت إسرائيل أملها في التزام فرنسا بدعمها لكنها بقيت على ثقة من التدخل الأنجلو-أميركي في حال وجود خطر كبير أو أي حال آخر، أطلقت العنان لتهورها وأبرزت، على جميع المستويات وبالطريقة التي نعرفها، تفوقها العسكري الساحق.

لا تأملوا، يا أساتذتي وأصدقائي، أمام وطأة هذه الضربة التي لا تطاق، ليس ضربة القوة وإنما ضربة الجبن والعار، أن نُسمع مرة أخرى صوت العقل. هذا الصوت، قد أسمعناه سابقاً، وعبارته لا تزال بين أيديكم. أياً كان حكمكم على الاقتراحات التوفيقية الصادرة عن الجانب العربي، لم تضعوا موضع الشك صدق هذه الاقتراحات، ونظن أنها لا تزال صالحة. ولإنصاف تطلعات الشعب اليهودي الشرعية ضد مطالب إسرائيل غير المقبولة، نظن أن قيام دولة يهودية عربية في فلسطين مستحسن وممكن وضروري. شرط ألا يحدثنا أحد الآن عن فيدرالية ما تكون فيها إسرائيل المنتصرة سيداً دون اعتراض وحكماً دون شروط لمنظمة ثنائية أو ثلاثية الأطراف تسيطر من خلالها على الشرق الأوسط برمته. برأينا، ينبغي أن يتعايش الشعب اليهودي في فلسطين مع الشعب العربي، كما يتعايش المسيحيون مع المسلمين

في لبنان، أو الصرب مع الكروات في يوغسلافيا، إلخ. لكن إسرائيل، أبداً. إن رأيتم أن هذا الموقف لا يمكن الدفاع عنه، مثلما قدمنا أعلاه هذا الاقتراح الطوباوي للتعايش والمساكنة، نجيبكم بشكل مماثل إن إسرائيل هي اليوتوبيا الحية وأخيراً الدموية، آجلاً أم عاجلاً. ربما تستطيع القوى ومنهزمو اليوم الاستشارة لفرض هذا الاقتراح أو فرضه كما هو. هذا ما لا يمكن تصوره بالنسبة إلى ضمير العالم العربي، مسيحي ومسلم على السواء، في حين أن هذا الضمير مستعد للعيش مع الشعب اليهودي، ذلك أن زمن إسرائيل لن يكون سوى فترة زمنية محدودة والكارثة التي سوف تتبع ستكون كبيرة بقدر ما تكون هذه الفترة طويلة.

لكن لا وقت اليوم للتنبؤ بمآسٍ جديدة ولا لإسماع صوت العقل السياسي. لكل شيء وقت وزمان، كما يقول الواعظ، واليوم، بعد فداحة الكارثة، هو زمن الإيمان والحقائق المقدسة. في هذا الأحد الذي لا يزال مظلماً بسقوط المدينة المقدسة، وبالرغم من توسلات البابا يوحنا بولس السادس ويو ثانت (U Thant) السكرتير العام للأمم المتحدة لإعلانها مدينة مفتوحة، أريد أن أحدثكم الآن عن الأماكن المقدسة وما تمثله من أملاك غير قابلة للتصرف لأنها مقدسة. لن تتبعوني في هذا المجال على هذا النحو، وأنا أدرك ذلك. حيث أن الكثير منكم لا يشتركون في الديانات التي أتكلم عنها. لكن لأني وجدت بينكم ممن لا يؤمنون بوجود الله أفضل الاستماع، فلدي كل ما يدعو إلى تقديم

حقائق الإيمان والمقدسات، بمعنى العدالة والسلام نفسه، للتأثير الذي تمارسه هذه الحقائق على نفوس المؤمنين وسلوكياتهم، وبالتالي على كل ما هو زماني. وإذا كنا لا نؤمن في الواقع في نهاية العالم المسلم، ولا في نهاية الشعب اليهودي، في مصيرهم الخاص بهم والمعادي على مر التاريخ، فإليكم ما أعتقد، وإليكم ما أومن به. سوف تصبرون على عنفي على هذا المستوى، كما تلطفتم باحتماله على المستوى الآخر.

عندما فتح الخليفة عمر القدس وصلى بمقربة من كنيسة القيامة (كي لا تتحول إلى مسجد، إن صلى داخلها)، وجد أن باحة المعبد قد استحالت إلى مكان تُفرغ فيه النفايات. كانت قد مضت ستة قرون على تدنيس موقع معبد هيرودوس الذي دُمرت قاعدته، من قبل الرومان الوثنيين ومن بعدهم البيزنطيين المسيحيين الذين تركوا القمامات تتكوم فيه. فأمر عندها الخليفة عمر بتنظيف الموقع، ولم يبنِ مسجداً فوقه (القبة التي تحمل اسمه بنتها، كما نعلم، السلالة الخلافية التالية، أمويو دمشق، وحرفيوها المسيحيون). لكن بكل حياء وتشدد، وضع المكان تحت حماية إله إبراهيم، حماية يتقاسمها كل من ينتمي إليه ليس عرقياً بل إيماناً. وبعيداً عن الباحة، أي في طرفها الغربي، هناك المسجد الأقصى، الذي اتخذ، فيما بعد، وبالرغم من تقلبات الحروب الصليبية، المعنى نفسه، تحت الحماية المريمية، هذه المرة، لمحراب زكريا، إثر ولاء بيزنطة لنذر العذراء في المعبد. هنا في الواقع من أجل

تأمل الإسلام برمته، وعلى وجه خاص عالمه الفقيه الغزالي الذي اعتزل داخله، نُقشت آيات القرآن التي تشير إلى أن المسيح ليس من ذرية داوود من حيث الجسد، وإن كان من سلالة داوود، ولكنه عيسى بن مريم العذراء. فهو إذاً الاعتراض القرآني الثابت على حصر الوعد المسيحي في النسل الجسدي اليهودي فقط، تماماً كاعتراضه الإبراهيمي على حصر وعد البطريرك المشترك وبركته، مع كل الامتيازات التي تتفرع عنها، في أولاد إسحاق لا غير. إن الإسلام هو الاعتراض العربي على كل تفرد عرقي أو عشائري. فهو دين أبناء إسحاق وأبناء إسماعيل ودين كل المؤمنين.

ليست إسرائيل عاجزة أمام هذا الاعتراض، لكنها تحصر المسيحية في شهادتها فقط وفي عِبر الحب؛ فسلاح اليهودية الوحيد هو التأكيد الصلب على رجائها. إن محاولة إثبات قوتها على طريقة الحروب الصليبية لهو سقوط لها عن مكانتها بين الأمم وإساءة إلى مصيرها الخاص. عندما هدم حاكم مجنون عديم المسؤولية كنيسة القيامة، جاء جواب الغرب اللاتيني على شكل مسعى غامض وخطأ مأسوي في نهاية المطاف، انتهى باستعادة صلاح الدين القدس، قبل أن يُكسب الجيوش المسلمة الاستيلاء على القسطنطينية الذي تحقق أخيراً بفضل الانشقاق المسيحي وسلب روما الثانية من قبل لاتينيي الحملة الصليبية الرابعة.

أنا، المسيحي ورجل الدين، أؤمن وأشهد أن المسلمين هم في

ديارهم وبموجب القانون في المسجد الأقصى كما في مسجد آية صوفيا، كما يجب أن يكونوا مرة أخرى في مسجدهم في قرطبة الذي حولته الإضافات المسيحية إلى كنيسة فجاءت إهانة لجماله النقي. إلا أن الحضور الإسلامي في الأقصى هو من طراز آخر، ذو نظام منزّه، هو الحضور الأول حتى آخر يوم. هذا الحضور هو في صلب الجدال الدائر بين المسلمين والمسيحيين وخاصة اليهود حول الإيمان الإبراهيمي ونسب المسيح. لذلك لا يمكن لإسرائيل أن تستقر فيها بالقوة دون أن يكون الضمير الإسلامي العالمي ضدها، ودون خيانة ضميرها الخاص، وفي فقدان رجائها المخلّص.

لقد استرجع صلاح الدين القدس من الصليبيين، وهو يُعد من أنبل الشخصيات الإسلامية حتى في نظر أعدائه، ودون شك أسمى شخصية إسلامية منذ النبي محمد. لقد دخل المدينة في ليلة المعراج ذاتها، وهي الليلة التي صعد فيها روحياً النبي العربي من الحرم المكي إلى الحرم الأقصى، ومنه إلى الحرم الذي حقق (في جسد مريم، كما في اليوم الأول في جسد آدم) سر Fiat[1]، لمعبد تخطى صنع البشر. وإذ بعيد المعراج يصبح العيد الوطني الفلسطيني. إن عزل موقع هذا العيد والاحتفال به عن تراب وطني فلسطيني ذي طابع إسلامي هو استفزاز لا مثيل له ليس فقط للعرب المسلمين في فلسطين فحسب، وإنما

(1) تعني : فليكن، وهو جواب مريم العذراء للملاك جبرائيل الذي جاء يبلغها البشارة السماوية الخلاصية تأكيداً منها على قبول المشروع الإلهي.

استفزاز للعالم الإسلامي برمته. ومن واجبي أن أذكره ليس لليهود فقط وإنما لكل ضمير صادق، وبشكل خاص لأولئك الذين يتكلمون حالياً عن التدويل، وهذا ما لا أتوانى عن الحديث عنه. لكن علينا أولاً أن نذكر أن هناك حقائق مقدسة في ضمير الشعوب ليس لأحد أن يمسها دون عقاب. لقد رُمي الملك عبد الله بالرصاص كجبان لدى خروجه من المسجد الأقصى لأنه أيّد تقسيم فلسطين. لا يمكن لأحد، بخلاف ذلك، أن يجر على نفسه غضب الإسلام، من أي نوع كان، إن حجب عن انتباهه وتمجيده علامات الإسلام المقدسة لدى خروجه من الصحراء العربية. فليغضب المسيحيون واليهود كذلك وليدعوا إلى الحرب المقدسة. ونحن نكره الحرب المقدسة أكثر منهم، حيث إننا عانيناها أكثر، ولن يهدأ لنا بال حتى يشفى منها الإسلام في صميمه. لكننا ندرك ونشهد أن رسالة الإسلام هي نصرة عدد من الحقوق الإلهية على المدينة الزمنية، على مرأى من اليهود والمسيحيين، فيحثهم، في عدد معين من الأماكن المميزة، على شيء آخر غير الحرب الصليبية.

لقد دعونا بأنفسنا الرئيس بومديان في خصوص القدس. ويصدف في الواقع أن حفيد متصوفٍ جزائري يحمل الاسم نفسه (أبو مديان) قد أسس منذ القرن السادس عشر وقفاً أدخل فيه حائط المبكى، أو كما يسميه اليهود حائط المغاربة، كاسم باب المدينة الذي يطل عليه. إلا أن هذا الحق الإسلامي غير القابل للتصرف، والذي دافعت عنه فرنسا لحين نيل الجزائر استقلالها (بعد أن سرقت إسرائيل الممتلكات في

عين كريم، المكان المفترض للزيارة)، لا يمثل سوى مظهر من قضية القدس الإسلامية. وهو لا يؤسس لأي سيطرة حصرية على حائط المبكى حيث ينبغي تسهيل ذهاب اليهود المؤمنين لقراءة المزامير، كما لا يمكن للمسلمين أنفسهم أن يجردوا الاجتماع المسيحي من حقه في تمجيد ذكرى داوود. ومع هذا، مهما كان تشابك هذه الممتلكات والحقوق في المكان نفسه، لا يمكن النظر إلى الفكر الإسلامي عن القدس إلا بنظرة شاملة، حيث أنه ضروري لجغرافيتها الروحية وفي الوقت نفسه لجغرافيتها السياسية.

قيل إن النبي العربي بعدما صلى باتجاه القدس، قد اختار قبلة مكة المكرمة، وذلك بسبب علامة القدس التي جعلها يهود بلاده غامضة في أعينه بتملكهم الغيور والمتفرد. لقد ذكر الرسول حينذاك آية قرآنية تقول: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[1]. أي أن قبلة مكة المكرمة ليست سوى العلامة، الموقتة، لمصير المؤمنين العالمي. وتظل القدس بالنسبة إلى الإسلام القبلة الأولى والأخيرة، كونها، وفقاً للمتصوفين وبسبب المسجد الأقصى، قبلة قلب الرسول. فبمكة المكرمة والمدينة المنورة والخليل تنظم القدس الترصيع لمصير الإسلام الزماني، مقارنة باليهودية والمسيحية.

وإذا ظنت اليهودية أن الساعة قد دقت لتظهر مآثرها أمام الإسلام، فإننا نطالبها بالدلائل. فإن قدمت لنا المأثر الإسرائيلي، نرد عليها

(1) سورة البقرة، الآية 115.

بالقول إنها دلالة مضادة وانحطاط لرسالتها في أعين أسمى ضمائرها، بغض النظر عن موقفهم العملي تجاه أبناء دينهم المرتبطين بهذا المأثر. لذلك، عندما يطلب منا حاخام تقي، بتحذير يكاد يكون مستتراً، أن نؤلف عن «لاهوتية الصهيونية» (حرفياً)، نرد عليه أنها، بالنسبة إلينا، قضية سياسية محضة، تماماً كالمسيحية القروسطية، وأننا نعتبرها في هذا الصدد، ودون الإساءة لأحد، كالابن اللاشرعي لإنكلترا الفيكتورية في نهايتها، قبل أن تُسقط عليه المجازرُ النازية ظل الرسالة، لا الرسالة الصهيونية بل الرسالة اليهودية بمجملها، وأنه، على هذا النحو، الشاهد المأسوي على الانحطاط الأوروبي.

لكن لماذا أعود إلى هذا الموضوع ولاسيما أن اليهود الليبراليين من جهة واليهود الأرثوذكس من جهة أخرى يقولون بأنفسهم رأيهم في سياسة الصهيونية وكذلك في «لاهوتها». كان بودنا أن نقول رأينا لزملائنا، من قساوسة وأساقفة، الذين يدافعون عن الصهيونية في إسرائيل ويناشدون في مصلحتها المسيحية الغربية. وسوف نحاسب كل في وقته، وخصوصاً حتى رجل الدين المجهول الاسم لكن المظفر الذي صرح، لدى دخول القوات الإسرائيلية المدينة المقدسة، قائلاً إلى قرّاء جريدة الفيغارو (Figaro) إنه فعل الكثير لليهود في مجمع الفاتيكان الثاني، وهو يحيي في هذا اليوم تجمع الشعب المختار على جبل صهيون المقدس. عار على المسيحيين، لكن عار أكبر على إسرائيل، موطن الأنبياء، التي قد تؤمن بالتصريحات اللامسؤولة من هذا النوع، بقدر ما هي خلط يدنس القدسيات.

أما بالنسبة إلينا، فإننا نرجع إلى سلطات أعلى ونتوجه الآن إلى الأمانة العامة الرومانية للوحدة المسيحية التي أخذت على عاتقها التوفيق بين الكنيسة والكنيس، وإلى الأمانة العامة للأديان غير المسيحية التي تمثل الضمير الكاثوليكي تجاه الإسلام. ربما يمكنها أن تقول للحبر الأعظم وبحرية أكبر رأيها في هذا الصراع. لكن نظراً لعدم تكريم طلب يوحنا بولس السادس بجعل «القدس مدينة مفتوحة»، ولأن مسألة تدويل الأماكن المقدسة مطروحة، لنقل ما لدينا من مشاعر بهذا الخصوص. كانت هذه صيغة مثالية للجميع في زمن البابا بيوس الثاني عشر وفترة حج البابا يوحنا بولس السادس، ذلك أن التدويل لن يقبل به الإسلام أبداً كتنازل وجميل، إذا ما سلّم به، من دولة إسرائيلية منتصرة. من جهة أخرى، وفي إطار اختلال توازن القوى الذي هو اليوم لمصلحة إسرائيل كلياً، فالتدويل يعني احتلالاً اقتصادياً محضاً من قبل إسرائيل. لذلك، فإني أراهن على أن الجهد العسكري للحملة الأخيرة ليس له أغراض أخرى، لاسيما وأنه تم الحفاظ على كل اعتبار ذي طابع استراتيجي. وليس للشعور الديني أهمية في السياسة الإسرائيلية إلا كعامل زخم إضافي في مدّها التوسعي. إن الاستيلاء على القدس، وكذلك على بيت لحم والخليل ليس له أهمية أكبر بنظرها من أهمية غزو إيلات التي احتلت بالقوة بعد هدنة عام 1949. إن وضع الأماكن المقدسة تحت سيطرة الاحتلال الإسرائيلي، يعني ببساطة، ولا جرم لأحد أن يمتعض منه، أن نضع في منفعة الدولة الصهيونية لا غير السياحة برمتها والحج المسيحي إلى الأرض المقدسة.

أيها الأصدقاء اليهود، إن كان لا يزال ممكناً أن أدعوكم هكذا وأن تقبلوا ذلك على الرغم من الهوة الهائلة التي تفصل بيننا، حيثما كنتم، في إسرائيل نفسها أو في مكان آخر من العالم، إن كنت أثير غضبكم، فإن غضبكم لن يكون أبداً أعظم من غضبي. لكن إذا قبلتم بالرغم من كل شيء أن أقول لكم شيئاً ما، على غرار ما قلته لأساتذتي وأصدقائي المنتمين لعرقكم والذين لا يشاطرونكم معتقداتكم الدينية ولا خياراتكم السياسية لمصلحة إسرائيل، فسوف أكون موجزاً.

اعترف الضمير المسيحي، لدى خروجه من الحقبة النازية الكئيبة، في نهاية المطاف بفداحة الظلم الذي كان مسؤولاً عنه في شأنكم، وحاول التكفير عنه في مجمع الفاتيكان الثاني. الآن وقد تم التكفير فعلاً، وأظن بشكل جيد، دعوني أقول لكم إنه يعاني من عيب أساسي، وإنه في نهاية الأمر قد جرّ لكم الضرر. إن المصالحة اليهودية المسيحية التي تمت بشكل ثنائي لا تزال جزئية، ولأنها لا تمس سوى الضمير الغربي، بالتالي تبقى غير فعالة. حتى إنها كاذبة وضارة، لاسيما وأنها تجند المسيحيين واليهود في أعقاب هيمنة تكرهها الأمم الفقيرة كافة. لن تكون هذه المصالحة اليهودية المسيحية منصفة وفعالة إلا عندما تتصالحون، مثلنا، مع الإسلام. وفي هذا الصدد، وضعتم، أو تركتم يحول بينكم وبينه عقبة جسيمة، ولكن من الممكن التغلب عليها. لقد ربطتم وجود الشعب اليهودي في فلسطين بكيان وطني يعارض الشعب العربي، فجعلتم 500 مليون مسلم ينفرون منكم، بل الضمير

العالمي كله الذي يشكل جزءاً لا يتجزأ من هذه الشعوب. وهذا خطأ جسيم، صحبه في الوقت نفسه ظلم صارخ، وهو نزوح عرب فلسطين. لكن من الممكن التكفير عن الخطأ وعن الظلم. ويجب الرجوع عن هذا الخطأ بحزم. ليس لدي نصيحة أقدمها لكم بخصوص المعايشة مع الإسلام، فتجربتكم تسبق تجربتنا بعشرات العقود. لكن دعوني أقول لكم إننا وجدنا صيغة وإنها وحدها ليست قابلة للعيش وتحترم رسالة كل منا وفق مصيره غير القابل للاختزال فقط، بل لا تزال تثمر باللقاء والتصادم النزيه. بعيداً عن الرغبة في حماية أنفسنا من تيوقراطية إسلامية مستعصية مزعومة بتيوقراطية أخرى مع أو بدون الدين المطابق، بعيداً عن رغبتنا في التجمع تحت لواء وطن قومي ما أو دولة وحدوية، لن تكون سوى شكل آخر من أشكال الغيتو المحاط بمطالبنا الخاصة بنا والمزين بمطامعنا فقط؛ ففي ضمن بلد واحد، مهما كانت علاقاتنا القديمة، وبموجب قانون واحد، لكن باعتبار الوضع الخاص بكل منا، يجب أن نعيش إلى جانب الإسلام وسوية معه.

أخيراً، أدعوكم كزميل ومواطن إلى صلاة ثلاثية[1] مسكونية، مع المسيحيين والمسلمين. آمل من كل قلبي أن يكون من الممكن يوماً ما أن نسد الفجوة، وأن يتم اللقاء حينئذٍ ليس فقط بين منصفي المظلومين أو صنّاع الصلح والتجاوزات من الطرفين. أما الأمنية الأخرى، أمنية هيكل جديد بثلاث قبب، فلا تأملوا به. حيث أن وقته لن يحين أبداً ولا

(1) صلاة تدوم ثلاثة أيام.

حتى في اليوم الآخر، حيث يأتي من السماء الهيكل الإلهي والقدس السماوية لتحقيق رجائنا المشترك. بانتظار ذلك، أشهد بوحدة إله إبراهيم أمام شعوب الأرض كلها أن لا ولن يكون إلا قبة واحدة، هي قبة الإسلام ـ وأمام هذه الشهادة المقدسة التي تثيرنا جميعاً، علينا، نحن كمسيحيين وأنتم كيهود، تقديم مظاهر أخرى غير الحروب الصليبية القروسطية أو الاستعمار الصهيوني. السلام على القدس.

الجزء الثالث

المسيحية والإسلام في لبنان: أضواء وتأملات[1]

(1) محاضرة ألقيت باللغة العربية في الندوة اللبنانية في بيروت في 31 أيار/ مايو 1965.

في مستهلّ الموضوع الذي يشاء تلطُّفكم أن تلجوا إليه معي في هذه الأمسية، أودّ من صميم القلب أن أتوقف هنيهة عند الشخص الذي حملنا معاً إليه. إنه لصداقة مدير الندوة، الأستاذ ميشال أسمر، الفضل في أن أقف لأول مرة في لبنان، متكلماً على موضوع أستطيع القول إنني كرّست له أجمل سنوات حياتي. كان يسيراً جداً على الأستاذ أسمر ولربما كان يكون أكثر واقعية، أن يعهد بهذه المهمة إلى لبناني من لبنان، غير أنه أحب أن يستدعي لبنانياً من باريس، فحقق عندي هكذا رغبة جدّ خفية بحيث إنني ما كنت لأجرؤ على البوح بها حتى لنفسي. لا شك أنه كان يفتش أيضاً عن شهادة تستطيع، إلى كونها لبنانية، أن تتجرد، في الموقف نفسه، عن ملابسات تعقُّد القضية التي نتعرض لها وتثقل جوانبها.

وإذ نخوض ميداناً ألفناه جمعياً، ولكن ألفناه إلى درجة بتنا نتعرض فيها أحياناً لأن نطمئن إلى الجانب الذي اخترناه، سنحاول أن نكوّن عن الموضوع في مجمله فكرة تكون أكثر انطباقاً عليه، وأن ندفع بحثنا خصوصاً إلى أبعد من الواقع الراهن.

في هذه المحاضرة سأتكلم، بالضرورة، على الماضي. فالماضي هو أساس كل شيء، وبخاصة في لبنان، على ما يعلّمنا أياه كبير من أسرة الندوة في سلسلة تآليف تعرض للماضي بدأت حلقاتها تظهر تباعاً [1]. ثم إن كل نظرة لا تسلّط أنوارها على الحاضر تبدو هنا، أكثر من أي مكان آخر، مجرّدة من الواقعية. غير أنّ أفضل ما في جهدنا سيكون، على غرار نهج «مواقف واقتراحات» المتبع في دراسات أخرى[2]، دعوة للتطلع إلى المستقبل ولتبين المؤسسات اللبنانية التي يجب خلقها أو تجديدها من أجل تحاور إسلامي مسيحي عتيد.

أبدأ، إذا سمحتم، انطلاقاً من مقال لحسن صعب، نشرته صحيفة الشرق الأوسط (Middle East Journal) في واشنطن، ثم نقلته بالفرنسية جريدة الأوريان (L'Orient) في بيروت. ففيما يقترح حسن صعب نظرة تاريخية عامة على مجمل العلائق الإسلامية المسيحية، ينوّه بالاعتبار التالي: بعد أن هدّد الإسلام المسيحية طوال أجيال ثم خضع لها خلال فترة الاستعمار، حان الوقت الذي أصبح فيه كل من الإسلام والمسيحية حراً تجاه الآخر. لقد حان الوقت الذي أصبح فيه الإسلام والمسيحية مستعدين، في هذا الجو من الحرية، للدخول في حوار مجد ومفيد. وبعد أن تقاتلا وتجاهلا بالرغم من اتصالات قاسرة

(1) جواد بولس، «شعوب الشرق الأدنى ومدنياته»، 3 مجلدات ظهرت إلى الآن، باريس، منشورات موتون (Mouton) 1961- 1964.

(2) «انطيوكينا» (Antiochena)، نصوص ووثائق لخدمة قضية الوحدة في الشرق الأوسط، 4، شارع كهنة سان سفران، باريس.

وأحياناً خلاقة، فقد حان الوقت لهما أخيراً كي يتعارفا ويعملا معاً، إذا أمكن من أجل توازن للعالم جديد.

وإذا ما قصرنا رؤيتنا على المتوسط، وجدنا، كما يقول حسن صعب مصيباً، أن المسيحية تحتل الآن الشاطئ الشمالي منه بينما استقر الإسلام، منذ استقلال الجزائر، وتوطد على الشاطئ الجنوبي، بيد أن ثمة ملاحظة طريفة تفرض نفسها: فعندما يتبادل الإسلام والمسيحية النظرات السلمية ويتأهبان للتصافح فوق الخضم البحري الذي يجمعهما أكثر مما يفرّق بينهما، نرى أن هذه النتيجة قد تحققت في لبنان، وأن ثمة شيئاً أحسن من التلاقي يحدث فيه بينهما هو الاندماج المتآلف النامي.

إن لبنان ليبدو عند ذاك وكأنه الحصيلة التنبؤية لتاريخ طويل من القرون، وبادرة التآلف لهذه الشعوب المتوسطية وقد عركها تمخض العلاقات والنزاعات بين المسلمين والمسيحيين. إنه الابن البكر للتعايش السلمي بين الإسلام والمسيحية.

في لبنان إذن، ينبغي أن تُعانى وتُعاش مجموعة العلائق الإسلامية المسيحية، لا للبنان فحسب، بل أيضاً وبخاصة لسائر العالم. وفي لبنان يجب أن يكون ذلك موضوع تفكير وتنظيم. وفي لبنان يجب أن تُدرس وتُسكب في قالب الواقع صيغ الحياة الطائفية المشتركة والدولية بمقدار ما هو تطور العالم الراهن لا يزال مرتكزاً على هذين العاملين الأساسيين في تطوره ألا وهما الإسلام والمسيحية.

I

لنبدأ، إذا سمحتم، بناحية النظم. فكيف يمكن، من أجل التطور العام للعلائق الإسلامية المسيحية في العالم، أن تتطور أنظمة لبنان دولة واتحاداً فيديرالياً يضم مختلف الفئات العرقية والطوائف الدينية، تطوراً ينسجم هو والمجموع؟ كيف تستطيع هذه الأنظمة أن تقترح نموذجاً مقنعاً بذاته، لكونه برهن، على صعيد هذا العالم الصغير الذي هو لبنان، عن إمكانية مرغوب فيها وقابلة للتحقيق في كل مكان آخر؟ وبكلمة: ما هو «الحل اللبناني» المقترح إنشاءً وتنظيماً، لكل نوع من أنواع التعايش الإسلامي المسيحي في أنحاء العالم؟ وكيف السبيل إلى جعل هذا الحل أكثر كمالاً؟

ولكي أبدّد كل التباس، وأتفادى مسبقاً كل ما من شأنه أن يبدو من قبلي ميلاً إلى إعادة النظر في الأنظمة اللبنانية القائمة، لا بد لي من القول إني أتمسك بتلك الأنظمة تمسكي بوجودي. ذاك إني أدركت، مع أبناء جيلي، الوعي السياسي عندما حقق لبنان استقلاله في الأوضاع المعروفة، وعشت، هنا بالضبط، تلك الساعات الحرجة، فشعرت بتقدير عميق، لا للدولة كما تأسست يومذاك فحسب، بل وكذلك للرجال الذين قادوا هذه المرحلة من مراحل المصير اللبناني.

ولكن إن كان الأمر على ما كان، فإننا لسنا إلّا أرسخ حرية لإكمال العمل في الاتجاه نفسه، وعدم السماح لمعنى الحرف الضيّق بأن

ينتصر على الروح فتتجمَّد برهة في التاريخ مبدعة ويجمد معها التطور الخلاق.

على هذا الضوء، فإن رأس قضايا الحوار الإسلامي المسيحي في لبنان وهدفه الأكبر، هو، كما يبدو لي، أن نتوصل، على مستوى الفكر، وبالارتكاز على الدستور الحالي، ودون أن نضطر لأن نمسَّه، إلى التمييز تمييزاً أكثر عدالة بين الروحاني والزمني، بين المقدّس وغير المقدّس، بين المدني أو السياسي والديني بغية سكبه، فيما بعد، في الأفكار والعادات وأخيراً في الأنظمة.

لا أقصد بذلك أن العنصر الروحي والقدسي أو الديني لا يمكن اتخاذه أساساً متيناً لإقامة ديموقراطية حديثة. فنحن، إذا ما استنطقنا الديموقراطيات ذات الأسس التقليدية الأشد متانة في العالم (أفكر خصوصاً (بهولندا وسويسرا)، لاحظنا، بالعكس، أن الطائفية، أو مرادفها العرقي أو الثقافي، تستطيع الاندماج بصورة كاملة في نظام ديموقراطي لا تصدّع فيه ولا مأخذ عليه.

رغم ذلك، فلا يزال صحيحاً أن نظاماً وافق، في فترة متقدمة من التاريخ، كل الموافقة مرحلة معينة، وأقصد التسامح والاحترام المتبادلين، هذا النظام ينبغي له أن يفسح في المجال لنظام آخر. فعندما يحين الوقت ويصبح في الإمكان مباشرة تعاون نشيط لا يشوبه أي تمييز بين الطوائف، إذ ذاك يبهت لون التسامح إزاء التفهم العميق، ولا يعود الاحترام المتبادل سوى جمود مضر.

وإذا كان لبنان قد تمكن، في قلب الشرق الأوسط، من أن يقيم نفسه بلداً مثلما هي سويسرا في قلب أوروبا، أي نقطة التقاء لشعوب

وملل وأديان كان ولما يزل حصناً منيعاً لها، فإن بإمكانه أن يكون اليوم مسرحاً لعمل أحسن، ولا سيما عندما يتحول الحصن إلى وطن مشرع الأبواب، وتغدو نقطة الالتقاء نقطة إشعاع.

أما أنا فإني مقتنع من كون الإسلام على أتم استعداد ليخطو هذه الخطوة الحاسمة نحو التمييز الدقيق بين الروحانيات والزمنيات؛ ولأنه اتجه نحو ذلك على صعيد المبادئ نفسها، فبالأولى أن يتجه على صعيد التطبيقات الاختبارية. وأعتقد مخلصاً أنه جدير ومستعد، كالمسيحية، للانسياق في تطور المجتمعات المتعددة العناصر وإنشاء نظام سياسي للدول لا يكون فيه العنصر الديني عقبة في سبيل التقدم أو سبباً لسيطرة فئة على أخرى، بل على العكس يصبح عاملاً قوياً من عوامل المساواة والحرية. وقصارى القول، أرى أن الإسلام مستعد لكي يحوّل نظام الحاضرة الإسلامية ويسمو به إلى مناخ أمة إسلامية تتعايش مع غيرها من الأمم.

وبإمكاني أن أبرهن أن هذا الاتجاه هو في صلب التيار الإسلامي نفسه، وفي سياق تطوره التاريخي في أصح معناه، وخصوصاً في طبيعة جذوره العميقة. على أني سأحتفظ، في ختام هذه المحاضرة، بمقابلة بين المسيحية والإسلام، أرجو أن ترسخنا في اعتقادنا بهذا الاتجاه الذي ذكرت، غير طامح في كل حال بأن أقوم بدور الناطق المأذون له باسم العالم الإسلامي في هذا الميدان، وهو دور يعود، في سلسلة المحاضرات هذه، إلى صديقنا الشيخ صبحي الصالح.

أمضي الآن في هذه المسألة إلى أبعد فأقول: إن الصعوبة، في نهاية الأمر، ليست في التمييز الروحي والزمني. إن أكثر الناس استنارة،

مسلمين ومسيحيين، لعلى أتم اتفاق حول هذا الشأن. وما يمكنه أن يشغل هؤلاء المفكرين أنفسهم، فإنما هو على العكس إيجاد طريقة اتحاد جديدة، بعد إنجاز ذلك التمييز، تكون أفضل وسيلة للوصل بين الروحي والزمني، بحيث تُجنِّبنا انقساماً لا موجب له ومخاصمة لا مبرر لها تضر الجميع.

ذاك أنه من الأكيد أن الأكثرية الساحقة من اللبنانيين، على تنوع طوائفها، لا تريد اتباع الطريق العلمانية التي تسلكها اليوم بعض الأمم المسيحية سابقاً، ولا اتباع طريق تلك الأمة الإسلامية التي اختارت التشبه بالعلمانية الأوروبية تشبهاً تاماً، وإنما أمنيتهم العميقة هي أن يجدوا، في حرية المعتقدات الكاملة وفي استقلال السلطة المدنية الشرعي بالنسبة إلى السلطة الدينية، مَثَل توافق من الداخل بين نظام الحاضرة الزمنية والنظام الروحي الذي منَّت به السماء من فوق. وذلك هو، على كل حال، أحد متطلبات الإسلام الأساسية وهو دين من مقومات رسالته نفسها، كما يقول لويس ماسينيون، أن تهيمن حقوق الله على المدينة الزمنية.

أما من الجانب المسيحي، فقد عرضت فكرة «الوحدة ضمن التمييز» عرضاً ممتازاً في مؤلفات جاك ماريتان. ولكن ثمة مؤلفات كثيرة أوحتها المسيحية في العالم الحديث، عُنيت بهذه المواضيع الكبيرة، ومن هنا بالذات طالعتنا أصداء بهذا المعنى في مؤلفات مفكر من عندنا هو رينه حبشي، لتنطلق من الشاطئ اللبناني عبر المتوسط كله.

وأما في الجانب الإسلامي، فأذكر نظاماً حديثاً يخرجنا من الفلك المتوسطي. معروف أن جمهورية الباكستان قد تجهزت بدستور استوحته مباشرة، وبصورة وثيقة، من التقاليد الإسلامية. ويمكننا أن نطالع، في عدد ما زال تحت الطبع من مجلة «الدروس الإسلامية» (Etudes Islamiques)، مقالاً جذاباً حول الموضوع للأستاذ محمد حميد الله. إن ما لفت نظرنا في هذا التنظيم الإسلامي الجديد، وما يذكرنا بنظام لبنان الإسلامي المسيحي، هو إنشاء نوع من «مجلس حكماء» مهمته ضمان تنفيذ الدستور والاجتهاد في تفسيره. ولا يتمتع هذا المجلس بأية صلاحية اشتراعية ولا بأية وسيلة إلزامية ولكنه يملك قانونياً الصلاحية للإدلاء برأيه بشأن حكم الأمة في الأمور الواقعية اليومية.

أعتقد أننا نستطيع أن نعمل الشيء نفسه في لبنان. وربما استطعنا القيام بعمل أحسن، إذا ما أنشئ مجلس إسلامي مسيحي لضمان احترام التمييز الشرعي ما بين الروحيات والزمنيات من جهة ولإحلال الانسجام اللازم بين الزمنيات والروحيات من جهة أخرى. ويمكن تأليف هذا المجلس من أشخاص يتّصفون بالحكمة والنية الحسنة ويُجمع عليهم الرأي العام المشترك عند المسيحيين والمسلمين. فإذا تسنى لهم أن يتمتعوا بثقة الحكام السياسيين والرؤساء الدينيين، وكانت لهم الصلاحية ليعربوا لكل من الطرفين عن شعور الطرف الآخر، ندرك بسهولة، إذ ذاك، أي دور مفيد تستطيع أن تقوم به مثل هذه المؤسسة. بالإضافة إذن، إلى إنشاء مجلس ملّي لكلتا الفئتين، يصار إلى إنشاء مجلس ملّي مشترك تحت شعار الاتفاق الودي والتعاون الإيجابي

يكون من علامات الأزمنة الجديدة ويمثل أرفع مقام معنوي، كما يكون مرجعاً أعلى للأمة عندما تصطدم بضميرها، فيطلعها، هكذا، الإسلام والمسيحية معاً على الطريق السوي.

II

إذا كنت لا أنكبّ بسرعة على البحث في التنظيمات التشريعية بل حاولت أن أبيِّن بما فيه الكفاية أهمية التقدم الإنشائي التنظيمي الذي ينتظر التعايش الإسلامي المسيحي في لبنان، تسمحون لي الآن الانتقال إلى صعيدٍ ثان. وهكذا إذا قصرنا من اهتمامنا الذي كان يشمل حتى الآن مجمل الأمة، تسنَّى لنا أن نتقصَّى، عن كثب، متطلباتنا المشتركة فنحدد دور المفكرين اللبنانيين، المسلمين منهم والمسيحيين.

سأقول ذلك بصورة مختصرة، وبصيغة أكثر اختصاراً توافق رجال الفكر ممن يدّعون تكوين النخبة: إن العمل الكبير الذي ينتظر المسيحيين والمسلمين في لبنان على صعيد الفكر والحوار هو عمل يهم العقل، ويهم التاريخ.

يهم العقل، وهذا ليس بجديد، ما دام أن مغامرة الفلسفة العربية التي هي ثمرة تعاون فريد بين المسيحيين والمسلمين في العصور الوسطى، قد انتهت كما نعرف إلى الإخفاق. وبما أنه كان للإسلام في هذا العمل الحصة الأهم، إذ إن مسيحيي الشرق عملوا في ميدان النقل وذلك بترجمتهم المؤلفات اليونانية إلى السريانية ثم إلى العربية،

كما برهنت ذلك دراسات خليل الجرّ الرائعة، فإني لن أسبِّب استغراباً وكدراً لأي شخص عندما أقول إنّ مسؤولية ذبول الفكر الفلسفي في الشرق تقع، أساساً، على عاتق كاتب إسلامي كبير، على ذاك الذي سمّي حجّة الإسلام. لست من الذين تستهويهم الاتهامات الجدلية، ولاسيما عندما يتناول الأمر رجلاً يعترف العالم كله بفضله وتستثير مؤلفاته أبحاثاً قيّمة حولها في بلدنا[1]. ولكن من الأكيد أن الغزالي، برغم ما تضمّنته مؤلفاته من غنى، لم يحلّ مشكل الفكر الديني الأساسي الذي هو مشكل استقلال العقل استقلالاً كاملاً. لقد ادّعى، بعكس ذلك، تخزية «الفلسفة» في «تهافته»، وانتهال ينابيع أخرى غير ينبوع العقل بينما ينبغي، عندما نهزأ بالفلسفة كما يقول باسكال، ألّا نهمل حسن التفلسف.

وليس في نيّتي تكدير أصدقائي المسلمين عندما أعتبر أن المدرسة الجديدة الناهدة إلى الإصلاح، والتي تضم بين جهابذتها لبنانياً لامعاً هو السيد رشيد رضا، لم توجد هي أيضاً حلاً مرضياً لمشكلة العقل هذه، كما أنها لم تعرف أن تُحلّ هذه القوة الأساسية السيدة في الإنسان المكان الحر الكامل الذي هو مكانها في خدمة العلوم الدينية. فإذا ما نحن استثنينا بعض التأكيدات المبدئية المتعلقة بعدم التناقض بين الدين والعقل، وبين الإيمان والعلم، تلك التأكيدات الواردة في مجموعة المبررات الدينية القديمة، فإننا لا نرى أين ينشأ وكيف يقوم تنظيم

(1) أنظر أطروحة الأب فريد جبر حول «فكرة اليقين عند الغزالي في أصولها النفسية والتاريخية»، باريس، منشورات فران (Vrin 1958).

جديد حقيقي لعلوم الدين على هيكل عقلي يسند ذاته بذاته، ويبقى متيناً. وما عدا دراسات محمد إقبال في باكستان وعلي عبد الرزاق في مصر، فليس هناك أية محاولة مبتكرة في هذا الاتجاه.

ومع ذلك، فإن تاريخ الفكر الإسلامي يوفر جميع العناصر اللازمة لهذا العمل الهام. وإذا كانت الفلسفة قد ذبلت زهرتها في الشرق العربي بعد الغزالي، فلا أحد يجهل انطلاقها وازدهارها في الغرب الإسلامي، وكيف أنها لامست الغربي المسيحي وأنعشته، منهضة إياه إلى حد ما من جاهليته في العصور الوسطى الأولى.

ولا يخطر لي هنا ابن رشد وحده فحسب، بل ابن خلدون أيضاً من بعده. وهكذا، مع بقائنا في نطاق العقل، نصل إلى التاريخ. لذا كنت أفكر بهذا المعلم عندما جعلت المهمة الأساسية للمفكرين اللبنانيين، من مسيحيين ومسلمين، بعث العقل والتاريخ المتساندين.

يجمل بالمرء أن يكون أقل تكلماً على أصدقائه منه على نفسه، إذ من المزعج أن يبدو وكأنه يسلمهم للدعاية. ولكن عندما يكون عددهم قليلاً، كما هي الحال عند محدّثكم، فلا يخشى تجاوز الحد معهم. لذا أسمح لنفسي بأن أذكر على سبيل المثال الأطروحة التي يعدها الآن في السوربون أحد مواطنينا الشباب، ناصيف نصار، وقد خصَّها بابن خلدون. ومما يضاعف مسرتي عندما أذكر هذا العمل الجميل، هو أنه يستخلص حدثين، لهما معنى كبير: أولهما، أن عودة هذا العالم الاجتماعي الكبير والمؤرخ المغربي إلى كسب أذهان الناس وانتباههم في أفريقيا الشمالية اليوم، من أبرز الدلائل على يقظة هذه البلدان. غير

أن هذا الأمر لا ينسيني أمراً آخر، كانه في حينه وعلى مستواه بلا شك أحد دلائل التجدد في العالم العربي كله. ما زلنا نذكر، وغالباً ما نذكر، الأثر القوي، وأكاد أقول الفضيحة، اللذين أثارهما طه حسين الشاب بمؤلفه عن الشعر الجاهلي. ولكننا قد لا نتذكر كثيراً أن أطروحته التي قدّمها في السوربون قد عالج فيها فلسفة ابن خلدون الاجتماعية.

هذا، ولا يتكدّرن أصدقاؤنا الأفريقيون الشماليون والمصريون إن قلت أن ليس في مصر فقط ولا في أفريقيا الشمالية وحدها ينبغي ويمكن بذل هذا الجهد الكبير للفلسفة وللنقد التاريخي الذي نجعله كالمهمة الأساسية للحوار الإسلامي المسيحي. إننا نؤكد بكل صدق وإخلاص، وبدون أي تطرف في العصبية الوطنية ولا ادعاء تجريد الآخرين من هذا العمل، أن هذا الحوار يجب أن يجد في لبنان أبرز تعابيره.

إن هذه الرسالة السامية تعود حقاً إلى الشباب اللبناني، وإن لقاء العقول في هذا الحقل وتجمع الإنتاج الفكري يجب أن يتم في داخل الجامعة اللبنانية.

وأقول هذا دونما أي قصد في النيل من الدور الكبير الذي سبق أن قامت به، ولما تزل، المؤسسات الجامعية الكبرى التي أنشأها في لبنان أجانب اعتبروا هذا البلد بلدهم الخاص. ومن ينحو هذا النحو إنما ينم عن نكرانه للجميل، وعن قصر نظره وفكره تجاه رجال العلم هؤلاء، الذين نعتبرهم كمواطنين. وإنه، بعكس ذلك، لمن دواعي الفخر لتلك المؤسسات العريقة التي أنشأوها وأحيوها أن تكون ضمنت مشاركة

الخيِّرين من أبناء وطننا واستعجلت اليوم الذي يتاح فيه أخيراً لشبيبة لبنانية تنتمي إلى جميع الأسر الروحية في بلد ملتئم مع نفسه، أن تجد النطاق الطبيعي لالتقائها وتكوينها في قلب الجامعة الوطنية. لقد حان الوقت كي تُنشأ في قلب هذه الجامعة معاهد حقيقية للبحث، تكون بمثابة الإطارات الصالحة لعمل وضعناه تحت شعار الفكر الفلسفي والنقد التاريخي.

ولكن، هل نكون مغالين إذا ما طالبنا بأن يُنشأ في عداد هذه المعاهد، وعلى غرار جامعات العالم المتحررة الكبرى ـ (أفكر بهارفرد مع مدرستها الدينية، وبستراسبورغ مع كليتيها اللاهوتيتين البروتستانتية والكاثوليكية، وبالسربون مع معهدها للدروس العليا والقسم المختص بالعلوم الدينية)ـ هل نكون مغالين إذا طالبنا بأن تنشأ كليات خاصة بالعلوم الدينية، الإسلامية والمسيحية، وأن تدمج كلياً في التعليم اللبناني العالي؟ أعتقد أن الجامعة اللبنانية لاتتم رسالتها الخاصة إلّا يوم تنشئ مثل هذه المعاهد فتؤالف إذ ذاك بين ما يعمله اللبنانيون، على اختلاف طوائفهم، وما يعمله معلموهم الأجانب في هذا الميدان، وتحقق هكذا في لبنان هذه الرسالة الضرورية، رسالة الالتقاء والمقابلة النزيهة بين المسيحيين والمسلمين، على صعيد إيمان كل منهم.

على أنه لا بد لي من القول إنني لا أتوقع نشأة هذا العمل في مستقبل قريب. فأنا بعكس ما اقترحت لمستقبل لبنان على صعيد النظم من إمكان إنشاء مجلس إسلامي مسيحي شكَّل المطلب الأول في هذا الحديث، وبعكس ما اقترحته الساعة، وهو المطلب الثاني الأساسي،

كمهمة معجَّلة للجامعة اللبنانية على صعيد التاريخ والعقل، بعكس ذلك أقول إني لا أتوقع قيام الحوار والتعاون على صعيد العلوم الدينية الصرف إلّا في مرحلة لاحقة. ذاك أن عمل المقابلة اللاهوتية البحث لن يكون ممكن الحصول وجديراً بإعطاء نتائج إيجابية إلّا عندما يُفرغ من ذلك العمل التمهيدي المذكور الذي تطلب نفساً طويلاً. وقد لا يقبل مسيحيو هذا البلد ومسلموه إخضاع ينابيعهم الموحاة وتقاليدهم العقائدية لمقاييس العقل والنقد التاريخي حسب أدقّ مقتضيات العلم الحديث، ولن يرضوا أن يثيروا الحوار الكبير الأخير الذي ينتظرهم إلّا بعد أن يكونوا قد قبلوا التمرّس معاً بالطرائق الفلسفية والنقدية الصارمة.

بانتظار ذلك، كثيرة هي الأمور التي تحتاج إلى العناية حتى في الحقل الديني الصرف. ثمة مطلب أساسي في هذا المجال أرجئ عرضه إلى ما بعد، غير أني حريص أن أعرض على حسن انتباهكم مطلبين ثانويين يمكن تحقيقهما دون انتظار.

اتمنى شخصياً - وإني لمقتنع بأن العدد الأكبر منكم لا يناوئون هذه الأمنية، ريثما تُنشأ الكلية المزدوجة للعلوم الدينية الإسلامية المسيحية، أن يحتل أستاذ مسلم منبراً مختصاً بالمسيحية في الجامعة اللبنانية وأن يحتل، مقابل ذلك، أستاذ مسيحي المنبر المختص بالأنظمة الإسلامية. إن هذا العمل لا يكون دليلاً على النية الحسنة المتبادلة فحسب، بل يكون أيضاً شهادة قاطعة على الاهتمام العميق

الإيجابي الذي يكنه للآخر كل قسم من الأمة في شخص الباحثين من أفراده المشهودين.

ومطلبي الثانوي الآخر ينحو الاتجاه عينه، ويرمي في الواقع إلى أن يكون لهذا التعليم على المستوى الجامعي صداه الأبعد بين صفوف الشباب وطبقات الشعب. اقترح إذن - مع التمني في أن يجد اقتراحي أذنين صاغيتين وقلمين سيَّالين - أن يصار إلى وضع بيان مشترك عن المسيحية والإسلام يسهم في صياغته مسيحي ومسلم، ثم يُنشر على أوسع مدى في سواد الشعب وفي المدارس وبين أوساط النخبة المثقفة التي غالباً ما تكون في هذا الحقل على مستوى الآخرين.

إني على يقين من أن هذا العمل يسد فراغاً كبيراً ويؤدي خدمة ضرورية. يدلي حسن صعب في الدراسة التي ذكرتها سابقاً بهذه الملاحظة التي يمكن التثبت من صحتها عندنا كل يوم: «إن مسيحياً في لبنان لأكثر اطلاعاً على إيمان أي كاثوليكي في فرنسا منه على إيمان مسلم يسكن البناية نفسها التي يسكنها هو، وكذلك إن أي مسلم في بيروت يعرف المسلم الأندونيسي أكثر من معرفته المسيحي الذي يقطن مسكناً مواجهاً لمسكنه».

فواقع الأمر هذا الذي يشرحه مجرى الزمان، لم يبق في الإمكان تبريره في الوقت الحاضر، وقد آن الآوان لكي يوضع بيان موضوعي منطوٍ على الميزات الخاصة يسهم في هذه المعرفة المشتركة بين اللبنانيين، المسيحيين منهم والمسلمين.

III

هذا البيان ينبغي بطبيعة الحال أن يكتب باللغة العربية، مما يحملني إلى الميدان الثالث الكبير للحوار بين المسلمين والمسيحيين، والذي بقي عليّ أن أسبر وإياكم غوره: ألا وهو ميدان اللغة العربية.

إني لمقتنع من كوني لن أحمل أيّاً منكم على الاستغراب عندما أولي مستقبل اللغة العربية أهمية توازي أهمية مستقبل المؤسسات في لبنان ومستقبل الفكر العقلاني والنقد التاريخي. وإني لمقتنع كذلك بأن لن يستغرب أحد منكم وضعي مستقبل اللغة في الدرجة الثالثة، وهي ليست آخر الدرجات بل أرفعها.

لا بد لي من الجهر بأن إيماني برسالة اللغة العربية يؤلف جزءاً من إيماني الصرف، وبأنني، كمسيحي، لأشعر بأن كل عرق في روحي الدينية مرتبط بلغة الوحي الإسلامي وطقوسه، تلك اللغة التي كانت لغة الحِيرة وغسان ونجران قبل أن تصبح لغة أشرف العاملين من المسيحيين على النهضة العربية. معنى ذلك أنني أجهر في الوقت نفسه بتعلقي بإيمان الإسلام دون المشاركة فيه، وبتعلقي بالتعابير الأصيلة لروحه الدينية.

ومعنى ذلك أيضاً الجهر بأن حقل اللغة العربية ليس أرفع حقل للحوار الإسلامي المسيحي فحسب، بل إنه هو هذا الحوار نفسه، بمعناه الجوهري. فاللغة العربية هي الوسيلة الممتازة للمسيحيين والمسلمين لا ليتفاهموا بها فحسب، بل ولينصهروا ويتداخلوا في خضمها. ففي اللغة العربية يتوافر للمسلمين والمسيحيين، على اعتناقهم ديناً مختلفاً،

يتوافر لهم على مستوى إيمانهم الفكر عينه والروح عينها، ويهتزون نوعاً ما على نغم للقلب واحد كما برهنت ذلك أخيراً ترجمتان إسلاميتان ومسيحيتان لسفر المزامير وضع إحداهما عفيف عسيران بالاشتراك مع محمود مرحبا وطبعتها المطبعة الكاثوليكية في بيروت، ووضع الترجمة الثانية محمد الصادق حسين بالاشتراك مع الآباء الدومينيكيين في القاهرة وأصدرتها دار السلام ومطابع دار المعارف بين القاهرة وبيروت.

وإذ أكنّ للغة العربية القدر الذي ذكرت، لا بد لي من أن أعترف، من جهة أخرى، بأنني لم أستعملها قط، أو أكاد، في العمل اليومي الخطابي أو الكتابي. فقد صرفتني ظروف، هي لحمة وجودي كما تنسجه لكل منا أصابع العناية الإلهية، عن استعمالها فيما كانت هي مجال عنايتي اليومية، عليها وقفت أحسن جهدي في الدراسات الإسلامية والقرآنية بخاصة.

ومن جهة أخرى، يجب أن أعترف بأنني، إبّان السنوات الخمس عشرة أو العشرين التي أمضيتها في البحوث الإسلامية العلمية، قد غيرت موقفي من مصير اللغة العربية. وسأبين للذين يهمهم الأمر، في ملاحظة ببليوغرافية توضيحية تضاف إلى الطبعة التي تنوي الندوة إصدارها لهذه المحاضرة في سلسلة محاضراتها، مراجع لا تتناول تحولاتي الخاصة فحسب في هذا الميدان، بل أيضاً ولا سيما تحولات معلمي لويس ماسينيون. وإذا كان ماسينيون قد ثبت سريعاً في تعلقه

المكين باللغة الفصحى وبرهن هذا التعلق بخاصّة في حقل الكتابة العربية، كما أشاد محمد الفاسي بذلك بعد وفاة هذا المستشرق الكبير، فينبغي لي القول إني أشاطركل المشاطرة هذا التعلق بمقدار ما أنظر إلى تاريخ الثقافة العربية الإسلامية وحاضرها، في قممها. وبالعكس، فإذا ما عنيت ولو قليلاً، ولاسيما في الوقت الحاضر، بالمقتضيات الملحة التي تفرضها ثقافة عربية موجهة للشعب مجاوزة نطاق النخبة الشديدة الغيرة على امتيازاتها والمغلقة اختيارياً على نفسها في أدغال الصعوبات اللغوية والصرفية والنحوية والكتابية الملتفة المتشابكة، فإنه لا يسعني عندئذ إلّا أن أرى إلى مستقبل اللغة العربية بمنظار مختلف. أجل إني أرى إليها أمينة لتقاليدها دوماً، ولكن مسهَّلة في تراكيبها، مرنة في تعابيرها، مصفاة في خطها، حاملة في تيارها الظافر أفضل ما في حياة اللهجات ونضارتها.

تراني أطلت الكلام في هذا الشأن وبت أشعر بأنني توغلت في منزلق خطر.

غير أنه لم يفت الأوان للعودة إلى الوراء والإعراب عن كنه فكرتي حول قضية هي من الخطورة بحيث يجب أن تبقى مفتوحة للبحث طويلاً. ولكي أعطي شهادة قاطعة عن ولاء المسيحيين للغة العربية، وهي إرثهم المشترك مع المسلمين، أقول: إنّ اللغة العربية هي وحدها تستحق هيئة لبنانية للأبحاث والدراسات. وهكذا بعد أن دعوت إلى إنشاء مجلس مشترك إسلامي مسيحي للسهر على تطور

الأنظمة في هذا البلد، وبعد أن حيِّيت النطاق الطبيعي للتجدد الفكري ضمن جامعة لبنانية متجددة وموسعة، وهو تجدد ضروري ضرورة تطور الأنظمة من أجل حوار إسلامي مسيحي، أقول: إنّ أكاديمية لبنانية للغة العربية تكون وحدها على مستوى ما هو مدين به هذا البلد، في عنصريه المكوّنين، لهذه اللغة التي هي روح روحه وعصب لحمه.

ولن يختلط عمل هذه الأكاديمية بالعمل الذي تقوم به المؤسسات المماثلة لها في القاهرة أو دمشق، لأنه لا يسعها، نظراً لموقع لبنان الخاص وللغات المتعددة المرتبط بها، كما أجاد تحليل ذلك الأب سليم عبو[1] إيما إجادة، إلّا أن تدمج دراسة اللغة العربية في الجوقة اللغوية والثقافية التي وضعتها في خضمها جغرافية هذا البلد وتاريخه. ولكي تقوم المؤسسة التي ندعو إليها بعملها خير قيام، ينبغي أن يطلق عليها اسم: المجمع اللبناني للغة العربية وسائر اللغات السامية. وهذه المؤسسة إذ تستدعي، لمثل هذه المهمة الواسعة النطاق، أفضل الاختصاصيين في العالم العربي بصفة أعضاء مواطنين، ونخبة الاختصاصيين في البلدان الأخرى بصفة أعضاء مراسلين لهم الحرمة نفسها، تكون خير ميدان يتيحه لبنان لكبار كتّابه من أجل الحوار مع زملائهم في العالم أجمع.

***

(1) أنظر أطروحة الأب سلم عبو حول «الازدواجية اللغوية الإفرنسية العربية في لبنان»، باريس، منشورات PUF, 1991.

قلت لكم إنني، في هذا المحاضرة، سأرى بخاصة إلى المستقبل فأقترح عليكم نظرة إسلامية مسيحية. وأظنني وفيت بما وعدت به، إذا أنا حكمت على ذلك من خلال الإيمان الضئيل الذي لا بد أن تولِّده في أنفسكم تلك الآفاق التي رسمت معالمها ضمن إطار عدد من المؤسسات الواجب إنشاؤها أو تجديدها.

بيد أنه يراودني أكثر من تشكك في الضمير إن أنا لم أذكر وأحيِّي في هذا المقام، دون أن أجرح تواضع أحد، مؤسسة قائمة، مؤسسة عاصرت استقلال لبنان ولاتزال مطَّردة اليقظة والتجدد في عنايتها بجميع القضايا التي ذكرت. فبسبب فقدان المؤسسات المنظمة والمختصَّة وسعياً وراء إنشائها، نلاحظ أن جميع الأمور التي أثرتها تجد الملتقى الطبيعي لتفاعلها ولانتشارها في العالم في هذه المؤسسة التي أنتم هذا المساء ضيوفها الأليفون أو زوارها لعشية عابرة. وتراني أحس بأنني أفي بعض ما عليّ من الجميل نحو من يذكي شعلتها منذ الساعة الأولى إذا ما أسهمت ولو بقسط قليل في حمل ضيوف الأمسية العارضة يتحولون، مثلي، إلى رواد لها مدمنين.

والندوة تهتم، إلى ذلك، بقطاعات أخرى غير التي أشرت إليها معكم، ولذا يتشكك ضميري مرة أخرى، إذ إني لم أتمثل بها في التعرض إلى هذه الحقول في ما يخص الحوار المسيحي الإسلامي.

قد تسلَّمون معي بأن ميدان اللغة العربية وتجددها هو غاية في الأهمية لكونه الوسيلة الممتازة للحوار بل هو التعبير عن كنهه الأساسي عينه. ولكن أليس تجديد الفنون مرتبطاً أيضاً ارتباطاً وثيقاً بميدان

اللغة، أقلّه عن طريق الخط العربي وهو «فن الإسلام التجريدي»؟ قد تقولون لي، من جهة أخرى، لماذا لم تعالج، والوقت محدد ضرورة، حقيقة الأمة الاجتماعية والاقتصادية بدلاً من نظامها الإنشائي؟ ولماذا لم تتكلم على العلم والتقنية بدل الكلام على الفكر الفلسفي وعلى التاريخ؟ ألا تظن أن هذه المعطيات أكثر أهمية في تطور العالم الحديث من تلك التي حاولت أن تعرضها؟ ثم ألا تعتقد أن الإسلام والمسيحية مضطران قسراً ومعاً لمجابهة هذه المعطيات الأساسية للعالم الحديث في لبنان وفي كل مكان؟.

في الواقع، يلزمني بحث كامل لتبرير الاختيار الذي اعتمدته. ولكن إن شاء لطفكم أن تسلموا معي بأن الوقت المحدد يفرض اختياراً، وأن مثل هذا الاختيار هو، بطبيعة الحال، اعتباطي في بعض جنباته لمجرد أنه اختيار شخص، يمكنني، أقلّه، أن أبيِّن لكم أن اختياري هذا لا يتضمن أية لامبالاة حيال الميادين التي لم أسبر غورها والتي ذكرتها معكم الآن.

إن اللبنانيين وأصدقاء لبنان ممن يهتمون، بالدرجة الأولى، بنمو لبنان الاقتصادي والاجتماعي، هم أولئك الذين أبقى معهم على تواصل تام. ووجود عمر عضاضة بيننا الليلة شهادة نفيسة لي. أما الفرع العلمي، فإني أستشفع حياله بالذي هو قيِّم عليه اليوم في الجامعة اللبنانية والذي لاتزال صداقته تشرفني، تلك الصداقة التي طبعت إلى حد بعيد سنوات شبابنا الدراسية في باريس.

ولكن إذا كانت هذه الشهادات الشخصية تنفي عني تهمة اللامبالاة

حيال هذا، يبقى أن الاختيار الذي اعتمدته يستند إلى أسباب أعمق جذوراً تبرر اعتماده. وإذ ذاك أقول: صحيح أن الميدان الاقتصادي والاجتماعي يلزمنا بآجال زمنية قاسرة، وأن الإعداد العلمي والتقني، من جهته، يفرض نفسه علينا كما يفرضها في العالم أجمع كضرورة أولية حتمية. غير أن أولئك الأشخاص أنفسهم الأكثر اطلاعاً مني على هذه المعطيات وهذه الضرورات الملحة، يعترفون، عن طيبة خاطر، بأنه يجدر بنا أولاً وضع نظام إنشائي سليم ومستقر، وأنه ينبغي، لاتقاء إلزامات التطور، ألا نضع المحراث أمام الفدان بل أن ننشئ قبل كل شيء عقولاً نيرة صالحة للتفكير المنطقي السليم وللفصل، بطريقة نقدية، بين الخطأ والصواب.

ثم إنه لأكيد من جهة أخرى، أن الميادين التي اخترتها تستدعي أكثر من غيرها الحوار بين المسيحيين والمسلمين، كمسيحيين ومسلمين، في حين أن تعاونهم في الحقول الأخرى ينبغي أن ينطلق تلقائياً وبصورة طبيعية، كما هي الحال لحسن الحظ في «الحركة الاجتماعية». مثلاً.

ومهما يكن من أمر، فقد حان الوقت، قبل الختام، أن نعود معاً إلى المعطيات التمهيدية فأقترح عليكم، كتكملة لهذه المحاضرة، نوعاً من تصريح رجل مسيحي لبناني عندما يرى إلى الإسلام. وإذا كان هذا لا يقضي على الفائدة من العرض الذي قدمته لكم، فقد يكون من حسناته أنه يبلور الافتراضات والنتائج.

IV

إن شهادتي، بصفة كوني مسيحياً لبنانياً، حيال الإسلام تتضمن بعض مقترحات بسيطة.

إن المسيحية والإسلام، وقد بلغا مرحلة توازنهما الدولي وتواجههما السلمي، ولاسيما حول المتوسط، ضروريان أحدهما للآخر. أعود ههنا إلى أقوال حسن صعب نفسها. فإزاء جميع القضايا الدولية الكبرى، لا يستطيع العالم المسيحي الاستغناء عن العالم الإسلامي كما لا يستطيع العالم الإسلامي هو أيضاً الاستغناء عن العالم المسيحي. كذلك لا يستطيع المسيحيون وحدهم إتمام إرادتهم كما لا يستطيع المسلمون وحدهم إتمامها أيضاً. بينما بإمكان إرادة للسلم مشتركة بين المسيحيين والمسلمين فرض السلام في العالم قاطبة. إن تعبئة عامة للمؤمنين في العالم، من مسيحيين ومسلمين، إنما هي قوة لا تُردّ، ومن شأنها أن تفرض السلام العالمي.

إن المسيحية والإسلام ضروريان إذن، بعضهما لبعض لأنهما ضروريان لسلام العالم واتحاده.

وبعبارة أسهل، أستعير كلماتها من مثل من عندنا: اليد الواحدة لا تصفِّق.

وأضيف: ينبغي أن تنضم اليدان، لا للتصفيق للسلام فحسب، بل أيضاً لإقامة الصلاة وتصعيدها إلى العلاء.

ولكن، إذا كانت المسيحية والإسلام ضروريين هكذا كلاهما للآخر، فلبنان إذ ذاك ضروري للمسيحية والإسلام، وبالتالي للعالم ـ

ومن المهم هنا أن نعي ذلك وعياً جدياً. ولا أقول هذا من قبيل الادعاء الأجوف، ذلك النوع من التعبير الأدبي الذي غالباً ما نلجأ إليه عندنا، وإنما أقوله بخوف ووجل وتهيُّب، مصدرها الشعور العميق الذي هو شعورنا برسالتنا المشتركة، مسيحيين ومسلمين، في هذا البلد. إن وجود بلدنا على وئام بين سكانه جميعاً لهو بالحقيقة أكثر من شهادة. إنه برهان ناصع على ضرورة المسيحيين والمسلمين المتبادلة، وعلى إرادتهم العامة على التعايش والتعاون والتفاعل.

إن لبناناً يريد نفسه مسيحياً صرفاً أو أغلبية مسيحية، يفقد مبرّر وجوده ويحكم على نفسه كما فعلت إسرائيل. وإن لبناناً يريد نفسه إسلامياً صرفاً أو أغلبية إسلامية، يحكم على نفسه أيضاً ويجعل من الإسلام قاطبة عصبية عرقية غيرى على هويتها، مستقلة عن كل هوية أخرى وعاجزة عن العيش في إطار أمة متعددة ومتوحّدة. غير أن لبنان كما هو وكما يريده ويحبه المسلمون النيّرون هو أسطع حجة للإسلام أمام الرأي العالم الدولي.

ولبنان أفضل من ذلك أيضاً. إنه ضروري للمسيحية جمعاء وللإسلام أجمع، كي يساعدهما على تحقيق مصير كل منهما الخاص إلى الأمام، وهو مصير لا يستطيعان تحقيقه إلا معاً.

وهذا أمر فهمته حديثاً وأنا أبحث عن قاعدة لوحدة مسيحية صالحة للجميع في هذه الرقعة من العالم. ولما كنت أعتبر أن مسيحسي هذا البلد يدّعون الانتماء إلى مدينة إنطاكية القديمة التي يحمل بطاركتهم اسمها المجيد، فقد حاولت أن أفهم مصير بطريركية إنطاكية في قلب

العالم المسيحي فتسنى لي ذلك على أحسن وجه بفضل الإسلام وخصوصاً بفضل مدينة إسلامية، هي المدينة الإسلامية المثلى، مدينة النبي. وهاكم كيف كان ذلك:

لم تحقق المسيحية ذاتها إلا يوم خرجت من البيئة اليهودية في أورشليم، تلك البيئة المغلقة على نفسها قومياً وقانونياً وثقافياً، لتستقر في إنطاكية، ومن هناك انفتحت على العالم مع اليهودية الهللينية المهاجرة. إن مؤلف كتاب أعمال الرسل سجّل ذلك بعناية، كما أن الجيل المسيحي الأول لم يفته هذا الأمر. ففي إنطاكية حمل رسل المسيح، للمرة الأولى، اسم المسيحيين، وقد أصبحوا حقاً مسيحيين بهذا الانتقال المحرر والمسكوني العالي. ومن إنطاكية إنما انطلقت مع بولس وبرنابا الإرساليات المسيحية الأولى.

إن هذا الزمن وهذا التحرك في تاريخ المسيحية ومسكونيتها العالمية يقابله تماماً زِمن وتحرك إسلامي مسكوني، كلاهما محرر. إن بدء العهد الإسلامي يؤرخ بهجرة النبي لا بولادته. لِمَ ذلك؟ لماذا يبدأ العهد الإسلامي يوم ترك النبي مسقط رأسه وهاجر مع بعض صحبه الأول ملتحقاً بالأنصار في يثرب؟ لأنه يوم قطع محمد روابط الدم والقبلية ليحيك روابط جديدة وميثاق شرف وحقّ لإناس غرباء عن وطنه، يومذاك برز إلى الوجود مجتمع جديد وولد الإسلام. ويوم استبدل النبي القرشيّ بمجتمعه القبلي والوراثي، حيث كانت تسود الولادة ودرجة القرابة والمصلحة التجارية والثأر، جماعة قوامها

الاختيار الحر والسيادة المعنوية والإيمان المشترك، يومذاك أبصرت النور أمة الإسلام العالمية الكبرى.

هذه الأمة يحيِّيها المسيحي الذي أنا هو، أو بالاحرى الذي أريد أن أكونه بنعمة الله، يحيِّيها، كما ترون، بأعظم إجلال. ولذا، عندما يبرز شيء من عدم التفاهم فإنما هو يشير إلينا بالعودة إلى الينابيع. إن هذه المنابع تقرّبنا ولا تباعد بيننا البتة. وتراني أقول إننا في استمرار حاجة كمسيحيين إلى الخروج من أورشليم والاستقرار في إنطاكية، وإننا بحاجة كمسلمين إلى مغادرة مكة لتجديد الهجرة إلى المدينة.

وهذا بالضبط ما نفعله عندما نتواعد نحن، مسيحيين ومسلمين من كل ملة، على التلاقي في لبنان، فنقرّ إذ ذاك بأن مصيرنا ليس في الانغلاق بل بانفتاح بعضنا على بعض، وبالتفاهم وتبادل التقدير وبالمحبة وخدمة سائر أبناء الإنسانية.

أنا لا أبغي إلزام محدثي المسلم بجواب محرج، كما لا أريد أن أنساق في تصريحات عاطفية لا طائل تحتها. لذا، تراني أقول، كمسيحي، إن تعلقي الشخصي بالإسلام قوي بحيث إن جلّ رغبتي تتجنب اجتذابه بصورة خفية وغير شرعية نحونا، كما أنها تستهدف أكثر من تصالحه مع المسيحية. رغبتي العميقة إنما هي في جعل الإسلام يتصالح هو ونفسه. وإذ أنبذ أي نوع من الارتدادات الدينية معتبراً إياها جميعاً من المساعي البائدة التي لا تليق بالضمير الديني الإنجيلي الحق، تراني، على الأصح، أتهم نفسي برغبة تولدها عندي ميولي الطبيعية وصداقاتي ودروسي وتحملني على ولوج ضمير

الإسلام نفسه ومن ثم مساعدته على تحقيق وحدته، ساعياً أبداً إلى تجاوز نفسه ضمن خطه الذاتي.

هكذا تغدو رغبتي وطريقتي مصالحة الإسلام مع فلسفته ومصالحته مع صوفيته (وربما دفعته إلى أن يعيد النظر في قضية الحلاج)، وحمله على استئناف فتح أبواب الاجتهاد في وجه دعاة التصلب والجمود كلهم من مسيحيين ومسلمين، أولئك المتشبثين بالتقاليد بأظفارهم وبراثنهم لا بأصولهم، ومصالحة الإسلام السنيِّ مع الإسلام الشيعي حيث فاءت أخيراً الفلسفة والصوفية كما تبيِّن ذلك مؤلفات كوربان (Corbin) وحيث لم تنطلق منذ القدم، كما يلاحظ ماسينيون، أية حركة للعدالة الاجتماعية في الإسلام دون أن يقوم أحد من سلالة النبي لتأييدها والاستشهاد في سبيلها.

تلكم هي إذن، طريقتي في البحث والدراسة والحوار من أجل مصالحة الإسلام مع نفسه ومن أجل وحدته، لفرط ما يهم رغبتي المسيحية في الوحدة أن يكون الأمر كذلك. ففي مرحلة يميزها عمقاً، بالنسبة إلى المسيحيين، الطابع المسكوني، يغدو قيام مسكونية إسلامية من الأمور البعيدة الأهمية في نظرهم. وما كان المسيحيون ليخشوا هذه المسكونية، بل إنهم، بالعكس، يلتمسونها. وإن إنشاء قداسة البابا بولس السادس سكرتيرية خاصة بالحوار مع المسلمين لهو بمثابة دعوة لمحاورين قيِّمين يتمكَّنون من الكلام باسم الإسلام في مختلف شيَعه وفي مداه العالمي أيضاً ككلّ لا يتجزأ.

إن المسيحية المسكونية اليوم، في تجرّدها إزاء الإسلام من كل مركّب استفزاز ونقص وارتداد، وفي ثقتها بالمصير الحر لكل ضمير ديني في قلب الطائفة التي ولد فيها وبحريته في أن يبقى في تلك الطائفة أو أن ينفصل عنها (وأية قيمة للإيمان إن لم يُعَشْ في مثل هذه الحرية؟)، وفي ثقتها الثقة نفسها بمصير كل طائفة دينية في التاريخ وفي تصميم الله، إن هذه المسيحية ترى في الإسلام المصالَحَ مع نفسه ـ والذي تكون قد ساعدته هي عند الحاجة على تحقيق مسكونيته الإسلامية ـ ترى فيه أفضل المحاورين أصالة وأثمن الحلفاء وأكثرهم ضرورة في النضال من أجل الإيمان الديني والعدالة الاجتماعية.

في ما يتعلق بي شخصياً، أستطيع القول، دونما استسلام للمسارّات، إنّ هذا المرمى لرغباتنا المسيحية أصبح وكأنه تحقق منذ زمن بعيد، كما أن كل ما هو إسلامي أصبح منذ زمن بعيد يخصني وكأنه التأم في أعمق أعماق فكري. ولما كان عملي الأول قد قام بوجه بعض التحليلات النقدية على برهنة كون القرآن ما زال كلاً لا يتجزأ ضمن نطاق الإيمان القديم بإله إبراهيم، فإني أستطيع القول الآن إنني، منذ فاتحة الكتاب إلى آخر صفحة ظهرت في العالم الإسلامي من المغرب إلى اندونيسيا ومن آسيا الوسطى إلى أفريقيا السوداء، أحفظ كل ذلك في ببليوغرافية مجلة الدروس الإسلامية، وإن كل هذا الذي هو إسلامي يدعوني ويكلمني فأجيبه، بل إني أحاول أن أجيبه بلهجته الخاصة، فتراني أميز ما يقترحه علي، فأتلقاه وأحمله إلى خطه الذاتي وأسير وإيّاه نحو كمال الحقيقة التي انبثق منها، باسم إله إبراهيم وحباً به.

تلمسون في ذلك موقف لويس ماسينيون الروحاني الداخلي. لم أذكره في هذا الحديث إلا عرَضاً بينما كان من الأجدى أن أعرض موقفه بانتظام لو أمكن، ولكنت أقللت من ذكره أكثر من ذلك، تحفظاً وحياءً، لو لم يكن ثمة عرفان للجميل مقدس وبنوة روحية وموضوعية علمية تدفعني في النهاية لأن أردّ إليه أمامكم أحسن ما استطعت عرضه عليكم.

***

ومنه أستعير اذكاراً أخيراً أختم به كلامي. سبق أن تكلمت على المدينة، على أنها المدينة الحق حيث كشفت هجرة محمد إليها الإسلام لنفسه، كما أن الانتقال من أورشليم إلى انطاكية علّم المسيحية الانصهار في مسكونية عالمية مطردة الامتداد. والمعروف أن لويس ماسينيون خصّ أحد مؤلفاته الأخيرة بـ «روضة المدينة» كإطار للتأمل الإسلامي في مصير النبي(1).

فحول فكرة الروضة هذه، حيث دفن النبي في اتجاه القبلة، بين أبي بكر وعمر، بينما هناك ضريح رابع لايزال فارغاً ينتظر عودة عيسى ابن مريم إلى جانبه، حول هذه الفكرة، وعلى ضوء «قنديل المواجهة» السري، وفي تلك القبلة، لا قبلة مكة بل قبلة الأنبياء، قبلة الإسلام

---

(1) أنظر «اوبرا مينورا» (Opera Minora)، بيروت، دار المعارف، الجزء 3، ص 286 إلى ص 315.

الأولى والأخيرة، مع كل المؤمنين بإله إبراهيم، قبلة القدس إذن، أريد القيام باذّكاري الأخير لنبي الإسلام ابتهالاً ودعاءً لمصيره.

في الدراسة التي استشهدت بها مراراً، يأخذ حسن صعب على المسيحية أنها لم تمنح بعد نبي الإسلام المكانة العائدة إليه، لا في نظر تاريخ الأديان ولا على صعيد الفكر اللاهوتي الصرف. إني أودّ أن أبيّن له في اذّكاري ودعائي هذا المساء، أنّه، إذا كانت هذه الرؤيا الدينية للأشياء لم تنطلق بعد في طريقها انطلاقاً كافياً، فهناك أكثر من نفس مسيحية من النفوس التي أعرفها والتي أتفاعل وإياها عبر المسافات، تعرف كيف تحفظ لفكر محمد مكاناً في تصاميم صلاتها.

لقد فكرت بذلك مراراً واذكرته في مختلف مقامات الإسلام المقصودة، المتواضعة منها والسامية، التي زرتها. فعلت ذلك في القدس، بين الأقصى، مكان المعراج التقليدي، والصخرة مكان ذبيحة إبراهيم. فعلته في الإمام الشافعي بالقاهرة حيث الزاوية الجنوبية الشرقية لمدينة الأموات المؤثرة التي يشرف عليها مزار أمير العشاق، تتميز، في اتجاه مكة وعلى طريق الحج الذي سلكه قديماً المحمل المصري، بقبر سيدي عقبة، واحد من صحابة النبي الأول. فعلته في بواكه (Bouaké)، على الساحل العاجي، بالقرب من جامع وضيع يقوم هناك عند حدود الغابة الكبيرة والسهل الأخضر، في قلب أفريقيا نفسها، وقد فكرت إذ ذاك بصحراء الجزيرة العربية التي أذكرها ماسينيون وتشوق إليها على أنها «قلب الإسلام الحزين». وفعلته أيضاً مراراً في المغرب، ولا سيما في مولاي إدريس ذاك المقام السامي من

حيث انطلق نشر الإسلام في البلاد على يد الوالي الحامل الاسم نفسه، وفي تين ـ مال في بطون الأطلس العالي المشرف على مراكش من جهة تيزي ـ ان ـ تست، من حيث انطلقت مع محمد بن تومرت وتلميذه عبد المؤمن الحركة الموحدية الكبرى.

وغالباً ما فعلته أخيراً في ضواحي المقابر الإسلامية بالمغرب، وقد تجمعت بقعاً من الأرض شاسعة في المدن الكبرى أو توزعت مهملة في الأرياف. ويشاء تقليد هناك أن تعود، مساء يوم الجمعة، يوم تستطيع النساء المسلمات أن يتوجهن إلى المقابر، أن تعود نفس النبي فتستنشق عبير غور الندّ، تماماً كما تعود أسراب العصافير العطشى لتشرب من أكواب هيأتها لها أيد ورعة ورحمة بالأحبة الراقدين هناك على رجاء القيامة والبعث.

في هذه الاتجاهات المتعددة وعلى الرجاء نفسه، لن أحمل إذاً أياً منكم على الاستغراب إذا ما اتجهت بفكري، كالنبي في قبره بالمدينة، نحو قبلة القدس واليوم الأخير وجهرت بما اختلج مراراً في نفسي وتحرك مبهماً على شفتي:

سلام عليك في رقادك بين أصحابك وحسامك لا يزال مجرداً على المشركين.

«وإذ قال إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ (سورة إبراهيم الآية 35).

سلام عليك لأنك أعلنت على العالم قاطبة شريعة العبادة الموحدة وأقسمت لتعمّمها على الخلق أجمعين.

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ (١) ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ (٤)﴾ (صورة الإخلاص).

سلام عليك لإعلانك الحرب على عشيرتك وذويك وما برحت تنذرهم حتى يعلوا حقوق الله على قوى الذهب والفضة.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥)﴾ (سورة الصافات الآية85)

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥)﴾ (سورة الصافات الآية 86)

﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨)﴾ (سورة الأنعام الآية 78) ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾ (سورة الأنعام الآية 79).

سلام عليك لأنك لم تنسَ يوم بطشك أيام ضعفك وما زلت تستعطف أفئدة الناس في سبيل السائل واليتيم.

﴿وَٱلضُّحَىٰ (١) وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)﴾ (سورة الضحى).

سلام عليك إذ لم تنسَ أيام سيطرتك رغبات صباك ولم تفطم بطهر تنزيلك المؤمنين بكلامك إلى العشق الإلهي كالحلّاج وغيره من الشهداء.

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ

(٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب (٨)﴾ (سورة الشرح).

سلام عليك إذ لم تنكر تواضع إنسانيتك أمام قومك مؤيداً حتى النهاية حقيقة البشرى التي عهد بها إليك تصديقاً لبشرى الأنبياء الخالدة من قبلك.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ (سورة الكهف، الآية 110).

سلام عليك وعلى جميع الأنبياء الذنين طالما صلّيت عليهم وسلّمت تسليماً.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (١٠٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (١٠٩)﴾ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١٢٠)﴾! (سورة الصافات، الآيات 108 109 و 120).

سلام عليك يا من ثارت لمريم من اتهامات قومها الباطلات المنكرات.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا (١٥٦)﴾ (سورة النساء، الآية 156).

سلام عليك لاعتقادك انتهال أروع ما قيل باللغة العربية على لسان الله خاصاً بها تكوين عيسى بن مريم كمثل آدم من قبل.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦)﴾ (سورة مريم، الآيات 16 إلى 26).

سلام عليك لأنك لم تحرم أحداً من ذرية إبراهيم بركة الوعد الميمون.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ (سورة المائدة، الآية 64).

سلام عليك لأن ربك في ذلك الوعد الذي امتنّ به على إبراهيم لم يشأ أن يغفل إسماعيل ولا إسحق.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ (سورة إبراهيم، الآية 39).

سلام عليك لذلك السر المكنون الذي بشَّر به ربك بعيسى بن مريم حتى ليتجرأ اليوم واحد من تلاميذه على أن يضع في شفتيك وحفاظاً على سلام نفسك ما وضعه ربك على شفتيه.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ (سورة مريم، الآية 33).

يواكيم مبارك

حاشية ببليوغرافية

حول مشكلة مستقبل اللغة العربية وكيفية كتابتها، أنظر كتابنا عن «الإسلام»، باريس، منشورات كاسترمان، 1962، صفحة 178، حاشية 7.

ولمعرفة وجهة نظر لويس ماسينيون، أنظر المقالات التالية:

-«صلوات ابراهيم الثلاث» (Les trois Prières d'Abraham)، ص 3 - 4 وص 36 - 41.

- «الإعراب» (L'Analyse Grammaticale)، في مجلة آرابيكا (Arabica) العدد الأول، 1954، ص 1 - 16.

- «الأصوات الساميَّة» (Voyelles Sémitiques)، في دائرة المعارف الموسيقية، منشورات فاسكيل (Fasquelle 1960).

وراجع أيضاً الدروس المتفرقة حول الموضوع نفسه وقد جمعناها في المجلد الثاني من «اوبرا مينورا» تحت عنوان «لغة وفكر».

وقد حفظ لويس ماسينيون إحدى المحاضرات التي ألقاها في

بيروت في 11 كانون الأول/ ديسمبر 1928 عن الأبجدية العربية والحرف اللاتيني، فأثبتناها تحت رقم 437 في حاشية لببليوغرافيته التي نشرها المعهد الفرنسي في دمشق وطبعتها المطبعة الكاثوليكية في بيروت عام 1965.

وفي 17 كانون الثاني/ يناير 1953، عاد لويس ماسينيون يؤكد تمسكه بالمحافظة على الأبجدية العربية في تصريح أدلى به أمام مجمع اللغة العربية في القاهرة، وكان ماسينيون عضواً فيه منذ تأسيسه عام 1933.

المحتويات

كان لا بد من وضع بين يديْ القارئ العربي مختارات من الأعمال الفكرية الغنية والقيّمة للأب يواكيم مبارك (1924-1995)، وهو ذاك العلامة بكل معنى الكلمة الذي تجاهله وطنه رغم غنى التراث الفكري والثقافي والتاريخي الذي تركه لنا.

صحيح أنَّ عدداً كبيراً من أعماله الفكرية قد كُتِبَت باللغة الفرنسية نظراً لإقامته في فرنسا مدة طويلة ولحيازته على ثلاث شهادات دكتوراه من جامعة باريس، تدور حول تاريخ العلاقات المسيحية والإسلامية منذ نشوء الديانة الإسلامية.

وما يميِّز أعمال هذه الشخصية الفذة من الناحية الفكرية كما من الناحية الإنسانية، هو هذه النظرة الشاملة المنفتحة والثاقبة ذات الآفاق الحاضرة والمستقبلية البنّاءة والمتفائلة لتأمين الانسجام والمودة ليس بين أبناء لبنان فقط، بلْ أيضاً بين العرب أنفسهم.

إنَّ مقاربة يواكيم مبارك لتاريخ العلاقات المسيحية الإسلامية هي مقاربة موضوعية بشكل لافت وإنْ كان متجذِّراً في المسيحية ويؤمن بها إيماناً ساطعاً مفتوحاً على أبناء الديانات الأخرى. وهو بحث باستمرار عن القواسم المشتركة، وليس عمّا يتناوله بشكل مكثف العديد من المفكرين والباحثين من الحواجز وشعور التعصّب والانعزال عن الآخر أو كرهه.

وقد اشتُهر الأب يواكيم مبارك في العالم الفرانكفوني بتعليمه الجامعي حول الديانة الإسلامية ومبادئها وعقيدتها، وذلك في كلٍّ من جامعتَيْ السوربون في باريس وجامعة لوفان الكاثوليكية في بلجيكا. وكذلك اشتُهر بمساعدته للطلاب اللبنانيين والعرب في باريس بالإشراف على أطروحات دكتوراه عديدة في مواضيع هامة لبنانية وعربية.

جورج قرم

ISBN 978-614-432-126-3

